



رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

منارات

manarat

العدد (1949) السنة الثامنة - السبت (30) تشرين الاول 2010



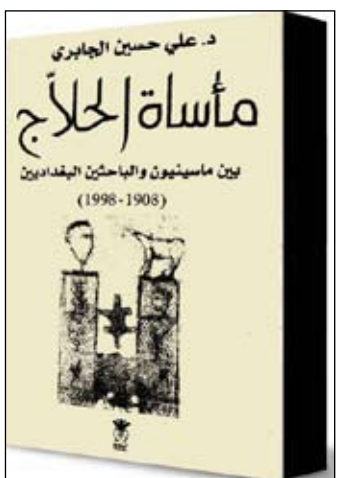
4

اتصالاتي بلورنس
عام 1917



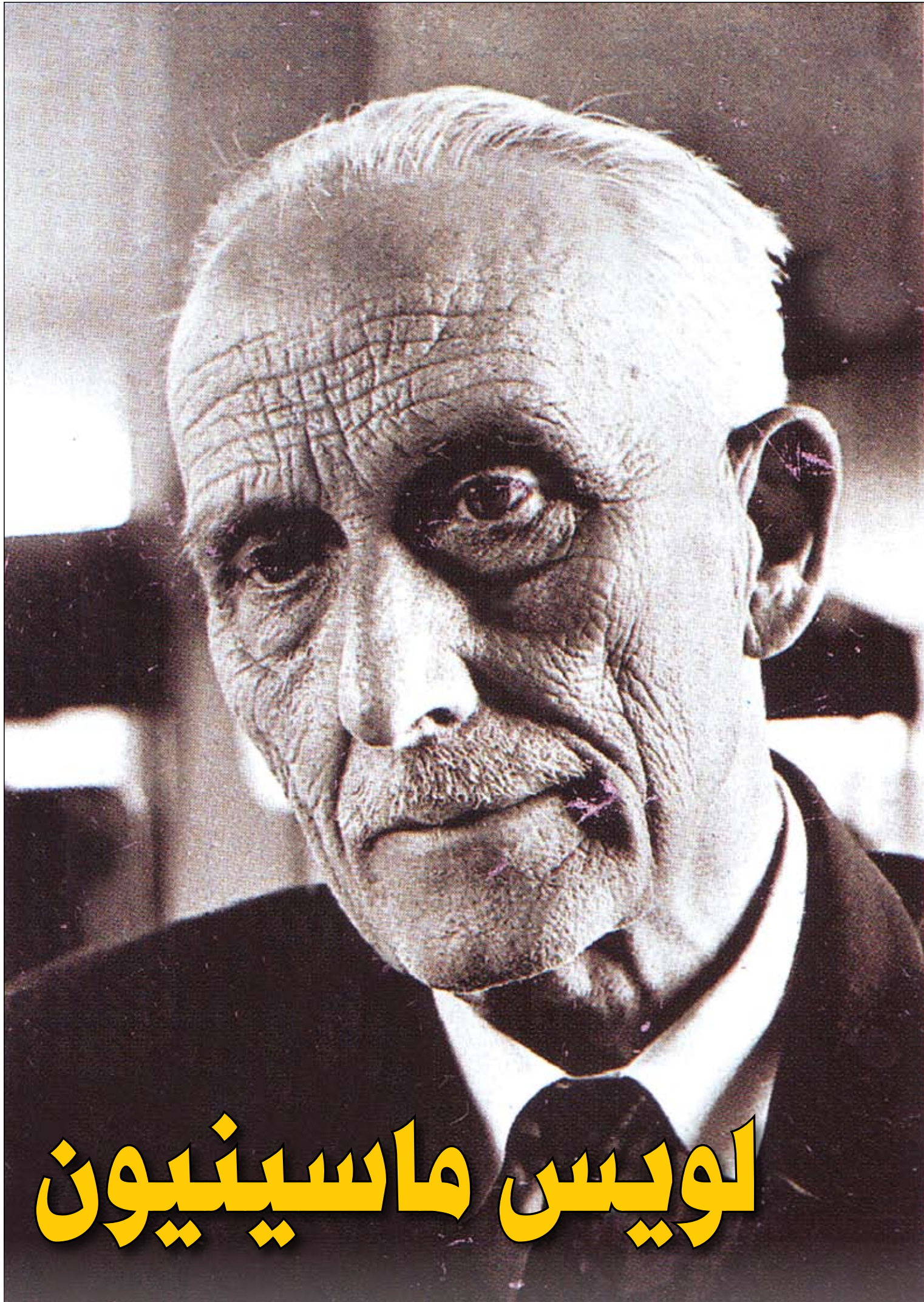
6

تعليقات على لهجة
بغداد العامية



12

ماسينيون والحلاج



لويس ماسينيون



الألم والبدلية والتنذير: كلمات استحضرها لويس ماسينيون بشكل مفاجئ وقاطع وغير متوقع، وهي تلك الكلمات التي يقول عنها انه "تدوى فوق رؤوسنا"، هي كلمات تقدم لكل حياة الف لام التعريف الخاصة بها وما يتحدد فيها وقانونها.

الألم والبدلية والتنذير: كلمات ثلاث وجهت حياة لويس ماسينيون الروحية والجسدية، وامتدتها بحقيقتها المحورية، وأخضعتها اعريجات الشكل البياني الخاص بها.

الألم والبدلية والتنذير: المصادر الأدبية لفكر لويس ماسينيون

فرانسوا إنجيليه

هي كلمات ثلاث تبدو كأنها ظلال رجال ثلاثة: البدلية: هي شهادة -Joris Karl- Huysmans (جورس-كارل-ويسمان). الألم: هي علامة Leon bloy (ليون بلوا).

التنذير: هي توجه صوفي وعلامات فائقة للطبيعة بقدر ما هي عقيدة فلكلورية ورثها فيما نرى -Villiers- de Lisle- Adam (فيليب-دي ليل-آدم).

١- البدلية:

اختبر لويس ماسينيون روحانية زهدية خاصة بالفداء، وهو ماتبرهن عليه حياته بدء من ١٨٨٢ حتى وفاته ١٩٦٢؛ فعنده اننا لا نجد الله، لا نجد في ذاته الا بفضل الآخر، فالله لا ينتظرنا الا عند الآخر، ذلك الآخر الذي نكفله عندما يقدم كقربان تسديدا لدينه لله، وفي هذا كان ماسينيون وريثا لطائفة (أخوان الرحمة) وهي تلك الطائفة التي أسسها Saint Pierre Nolascque (القديس بيير نولاسك) ونظم نسائك كانوا يطالبون المسيحيين بقدية أخوانهم سجينيين زنازانات البربرية، وذلك في حالة عدم تطوعهم لان يكونوا بدائلا وقدية حية وفاء لمطالب القراصنة، وكان لويس ماسينيون مؤمنا -بحق- بعدالة الفداء عندما قدم نفسه فدية عن المرقين، وعندما تصدى لمرترقة نظام السوق، وللفرقة العنصرية والتكنولوجيا.

وقد لا يكون التاريخ -وفقا لماسينيون- الا مواجهة الزمانية بين المأجور (المرترق) والذي يدفع الأجر، اي المواجهة بين الذي يُدعى والذي يُقدي.

الله في ذاته، بمعنى انه من اجل الآخر، وبدلا من الآخر، كانت هذه البدلية بالنسبة لماسينيون انز هي المرادف تماما للحقيقة المحورية للايمان، وقد تزامنت بالنسبة له مع تجربة اعادة اكتشافه لهذا الايمان، كتب يقول: "ان التاريخ في تسلسله ليس الا مجموعة من البدليات التي ترجع لزمان المذنبين الاول" (رسالة Caludel (كلوديل بتاريخ ١٩٠٨/١٠/١٧) وسيستحضر في الطرف الآخر من حياته في عام ١٩٥٠، رد فعل البدلية الصوفي الذي هو دليل كوني ودليل على انتصار تضحية عيسى، وسيبتهل لله الذي "يوجد دائما، قرنا تلو القرن اضحية خاصة، رجالا ونساء، يرتضون تحمل نصيبهم من خطيئة العالم مانحين الذي بعث زوجا جسديا لهم، سعادة الاستمرار في العذاب من اجلنا، وذلك من خلالهم، مما يتم ولعه"، ويقول عن البدلية في نص اخر انها: "القانون الاسمي للحب"، وعندما اسس مع ماري كجيل في دمياط هذه البدلية المتمثلة في تجمع للابدال من ابناء الطائفة الشبان الذين يقيمون صلوات الشفاعة من اجل فداء النفوس المارقة، وعملا على تحقيق مزيد من العدالة لمسيحي الشرق وللجماهير المستغلة، كان هذا ايضا اجتهادا منه لتدعيم الفداء.

هذه الممارسة الروحية للبدلية، التي تبرهن عليها نصوص موزعة على كل سنوات حياته ورثها ماسينيون مباشرة تقريبا عن -Joris- Karl- Huysmans (جورس-كارل-ويسمان). هل ورثها عن (ويسمان) وحده؟ لا، بل عن كثيرين، كان (ويسمان) واحدا منهم كما سنرى، (ويسمان) وماسينيون هما ارتقاء روحي لم يتكشف الا قليلا، وهما موروث شهادي لم يدرس الا قليلا بالرغم من كونه اساسيا. لنذكر بعلاقات الصداقة التي كانت تربط (ويسمان) من خلال الرسام -Marie-

Charles Dulac شارل-ماري دولاك، بولد ماسينيون، صاحب النزعة الانسانية الادارية والذي عرف ككناح باسم Pierre Roche (بيير روش) والذي توفي وهو يضع للسمات الاخيرة لقالب تمثال نصفي لويسمان. ولنذكر بالزيارة التي قام بها لويس ماسينيون وهو في السادسة عشر لويسمان في Liguge (ليجوجيه)، وقد ارسله اليه ابوه، وفي هذه الزيارة اباح له (ويسمان) -على مدى ست ساعات- "باسرار غير متوقعة"، ولنذكر بالمحاضرة التي القاها في ٩ آذار سنة ١٩١٢ في القاهرة على نهر النيل، دفاعا عن (ويسمان) الذي كانت اعماله الاخيرة تحمل بصمات عداء عنيف للماسونية، ولنذكر بالذات بهذه النصوص الاخيرة التي كرسها له في الاعوام ١٩٤٦ و١٩٤٨ و١٩٤٩ و١٩٥٧، وهي ليست من قبيل المديح الخالص المفعم بالحنين للماضي والذي يوجه لاستاذ الام، وانما هي دفاعات مرتعشة، ومبرزة لخصور نشط على الدوام. وستبرهن بعض الاقتطفات سعة حجم الميراث وعلى اهمية الشهادة: "انا مدين لصلاة (ويسمان) باستعادتي للايمان"، (ويسمان) هذا الكاتب الكبير الذي تحول للايمان، "الصداقة المقدسة التي اكنها لويسمان الذي ساعدني بفضل صلواته على استعادة الايمان"، وتحمل اهم الاقتطفات تاريخ ١٩٥٧ (اي خمس سنوات قبل وفاته): "ان ما يعنيني هو القيام بواجبي الملح تجاه (ويسمان) الذي ادين له باهتدائي مرة اخرى للطريق السليم، والذي دعا لي، تائها اثناء احتضاره، والذي تلقى اخر، نظرات ابي المحتضر، والذي ارسلني بعد وفاة ابي Danial Fontaine (دانييل فونتين)، هذا القديس، والكاهن الرابع الذي كان اخر من تلقى اعترافه، والذي اباح لي بسر شرف زمالة العمل الاخوية،

اي المشاركة بواسطة البدلية الصوفية بين المذنب التائب واخيه المذنب الذي لم يتب بعد، لأنقله (اي السر) للآخرين، ومن عام ١٩٠٨ الى عام ١٩٥٧- اي بدء من رسائله الاولى (لكوديل) وانتهاء بنصوصه الاخيرة- نجد (ويسمان) حاضرا كشفيح لماسينيون كما فعل وهو يحتضر، وفي لحظة الغريب في العراق عام ١٩٠٨. ونحن لاننسى كون (ولع الحلاج) الذي هو حجر الزاوية لكل اعمال ماسينيون قد اهدى في بادئ الامر لذكرى (جويس-كارل ويسمان).

ان الدراسة المتأنية لاعمال (ويسمان) الاخيرة ولرسائله (ويسمان) بعد ان تحو للايمان تبين لنا ان البدلية بالنسبة له هي العمود الفقري للتطبيق الصوفي للايمان، وهي ذات جوهرية.



للتطبيق الصوفي للايمان، وهي ذات جوهرية. والامثلة على ذلك عديدة واضحة، ولن نأخذ منها الا بعضها لكونها في رأينا ذات مغزى.

وفي عام ١٨٩٥ (على الطريق) كان القس Gevresin (جيفرسان) (Boullan بولان)) قد شرع في نظرية البدلية لدurtal (دورتال) (Huysmans ويسمان) قائلا: "منهج البدلية الذي كان والذي ما زال هو السبب المجيد لوجود الرهبنة حياة القديسين والقديسات الذين اشتبهوا هذه التضحيات واصلحو خطايا الآخرين بواسطة عذابات تطلعوا اليها بحرارة وتحملوها بالصبر... هذه البدلية التي تخص نفسا قوية والتي تخلص نفسا اخرى ليست لها قوتها من المخاطر ومن المخاوف، هي احد قوانين التصوف الكبيرة... قانون البدلية هذا، ومعجزة الرحمة المطلقة، وهذا الانتصار الفائق للانسانية للتصوف"، وعقب ذلك ظهرت استعارة محددة للبدلية عندما كتب (ويسمان) عن ابناء الطوائف المتألما قائلا: "هم مانعو الصواعق بالنسبة للمجتمع"، وهم يجذبون البهيم السائل الشيطاني ويمتصون اغراءات الرذائل، ويحفظون بفضل ادعيتهم الذين يعيشون في الخطيئة مثلنا، واخيرا فهم الذين يهدون من غضب العلي ويحولون دون ادانة الارض".

قال عن Lydwine (ليدوين) والتي سيرس لها بعد ست سنوات من ذلك سيرة مقدسة طويلة: "كانت (ليدوين) مغناطيسا للالام"، وقد يكون هذا المجاز الرابع اكثر تاثيرا من مجاز (مانع الصواعق)، ان تمنحه اللغة الفرنسية، وهي تتلاعب بمعناه المزدوج، فاعلية يضاعف من قوتها كونه في ان واحد كائن حب وقطب جذب تكسبه الرغبة في التضحية قدرة مغناطيسية، وعنده تتجمع بقايا العذابات والالام المبعثرة.

هذا العرض الاول للتصوف البدني سيكتسب في عام ١٩٠١ في سيرة Ste. Lydwine De Schiedam (القديسة ليدوين دي شيدام) مزيدا من الاهمية لكونه تعمقا في حالة تاريخية من شأنه تعبيد الطريق للتناول النظري، فقد تحول البديلة فيها- في هذه السيرة- الى حارس للتوازن الصوفي للعالم، والامير عليه، فهو ان يمارس التضحية الرسولية يحافظ على النسب الدقيقة للخير والشر. ويقول: "لم يكن بالفعل توازن العالم قريبا من قبل الاختلال كما يحدث الان، ويبدو ايضا ان الله لم يكن من قبل بهذا الحرص على توازن الفضائل والذائل، وعلى وضوح هذا الكم من عذابات القديسات، تحقيقا للتوازن بين الكفتين، في حالة رجوع كفة المظالم"، ان لم تكن هذه النفوس، التي تقبل مثل خالقها ان تعذب من اجل جرائم هي بريئة منها، اذا لم تكن موجودة لكان الوضع بالنسبة للكون ممانا لما كان ستكونه بلدا من غير حماية السدود لها اي لا يتبلع فيضان الذنوب العالم كما يتبلع مد الامواج هولندا".

وبالرغم من كل هذا فاذا كان (ويسمان) و(ماسينيون) هما بالقطع اكثر منظري التصوف البدلي منهجية، واكثر مطبقيه دأبا، واعلى قمة من حيث القوة (بما ان المعيار الابدي للبدلية هو المسيح من حيث هذا النموذج الدائم لها) فان ثمة مؤلفين اخرين يبرزون امامنا، وقد تشفت عنهم بالذات اعمال كل من Maurice Belval (موريس بلفال) وRichard Griffiths (ريتشارد جريفث). ورجع العذاب حاضر عند Peguy (بيجي) Jean Darc (جان دارك) او عند Claudel (كلوديل) في Lannonce Faite a Marie (بشارة مريم)، الم تقل العذاب عندما يكون اراديا مطلقا هي ارادته للخطيئة وسعيد هو الذي يتعذب والذي يعرف جدوى عذابه. ولتشر ايضا مقفنين في ذلك اثر ريتشارد جريفث لروايات Emile Vaumann (اميل بومان): La Fosse Aux Lions (خندق الاسود)، وLimmoelec (المستشبهة)، Le Bapteme De Pauline وArdel (تعميد بولين اريدل)، والى روايات Andre Lafon (اندرية لافون)، ويعودنا الوقت لممارسة نوع من التقدم التراجعي بهدف إعادة تكوين حلقة اثر الأخرى سلسلة الاستشهادات على المؤثرات، ولتشر بالرغم من هذا الى هذه اللحظات الجوهرية: اذا كان Leon Bloy (ليون بلوا) قد نقل ماسينيون، ولتستعير عنوان مؤلف Albert Beguin (البير بيجان). (تصوف العذاب الحقيقي)، فان الفضل في تعليم (ويسمان) البدلية يرجع للقس (بولان)، ذلك الكاهن المطرود من الكنيسة، والطائفي الشيطاني، وان اكتسبت- اي البدلية- عنده بالرغم من كل شيء، سمات التبادل الميكانيكي بين المريض والبدل، اصبح اقرب للمقايضة او للوسيلة ليس الا. لقد شوهد مبدأ البدلية هنا: فاللطف لا يصدر للخليفة وكأنه مجرد حوالة بريدية، وكما كان يذكرنا جاك بيرك بالامس في هذا الموضوع ذاته، فان الله- الله وحده- هو الذي يبذل.

ومن قبله جرب Barbey Daureville (باربي دورفيلي) في عام ١٨٦٥ في روايته Un Pretre Marie (قس متزوج) عرضا سرديا وسيكولوجيا للبدلية، ولنحك ذلك: عرضت Calixte de Sombrevail (كاليكست دي سومبريفال) وهي البطلة ان تكون عوضا عن خطايا ابنيها، وذلك امام اعين الساحرة Malgaigne (مالجني).. ولنذكر من جهة اخرى ان (باربي) معهد الطريق (لويسمان) عندما كتب يقول مستحضرا فداء كاليكست البدلي كما عليها ان في

حياة (سومبريفال) دور الخيط الموصل للطف شأنها شأن خيط شبهان الذي تنزلق عليه الصاعقة"، ومما لا شك فيه اننا هنا بصدد اخر المصادر الممكنة لمجان مانع الرد او مانع الصاعقة عند (ويسمان)، والذي سيسنعيه فيما بعد في (على الطريق)، وفي Les foules de Lourdes (جماهير لورد). قبل باربي بخمسة عشر عاما، سنجد الفيلسوف المتواضع Antoine Blanc de Saint- Bonnet (انطوان بلا ندي سانت بونيه)، والذي صدر مؤلفه الرئيسي La Douleur (الالم) عام ١٨٤٩، وقد ظهرت عند هذا المؤلف نظرية للبدلية، سيتبناها وسيعدل فيها كل من (بلوا) و(باربي).

الا ان (بلا ندي سان بونيه) لم يكن الا مرحلة، او طور ادى لكاتب اخر يختلف عنه تماما من حيث الهدف الا وهو Le Comte Joseph de Maistre (الكونت جوزيف دي ميستر)، لقد ذكر هذا الأخير صراحة مذهب البدلية Les soires (العصر) وحلها في Séherats de Saint petersbourg (سانت بيتر سيورج)، وهو ان يذكر في هذا الكتاب كتاب (بن دي سان بونيه: Considerations sur la France (نظرات على فرنسا) (١٧٩٠) يستحضر منه "العقيدة الكلية والقديمة قدم العالم، عقيدة رجع الام البراءة التي هي من اجل المذنبين وقد تتساءل احيانا ما جدوى صنوف القمع الرهيبة التي تمارسها بعض الطوائف الدينية، والتي هي في الوقت نفسه صنوف من الاخلاص، ومن الاجدى التساؤل- على وجه الدقة- عن جدوى المسيحية بما نها تقوم كلها على هذا المعتقد نفسه الذي تضخم، معتقد البراءة التي تسد ثمن الجريمة" وكتب في Eclaircissements sur les sacrifices (ايضاحات للتضحيات) شارحا فكرته عن التضحيات الانسانية، كتب يقول: "كانت النظرية كلها تقوم على عقيدة الرجوع، كان يظن- كما يظن الان وكما سيظن على الدوام- ان البريء يمكنه ان يسد ثمن جريمة المذنب". يتضح ان ان يبدل البدلية، وهو في الاصل معارض للثورة ثم اصبح فيما بعد ثوريا، وهو شاهد على رؤية لفرنسا تعتبرها مذنبية، وان عليها التكفير عن الجرح الذي اصابته به الله عندما ضحت بمثله على الارض، وانها مضطرة الى التكفير عن ضياع السلطة؛ مما يتضح انه قد تحول فيما بعد الى اداة للتحليل الفلسفي والسيكولوجي، والى موضوع ادبي واجتماعي. هذا الموضوع بعد ان عولج مرة اخرى، وبعد ان نقي، وبعد ان خضع لعملية تطهير ايدولوجية ولنوع من اعادة التغير سينقل انن لوييس ماسينيون، الذي سيسبغ ممثلا وملخصا له والامير الاسمي عليه.

٢- الالم: اذا كان الالم هو العصب المحرك للتصوف البدلي او للرحمة التعويضية التي يمثل هو حقيقتها المحسوسة ويمثل قيمتها التبادلية، فيبدو من جهة اخرى ان بالامكان عزله وتحليله في حد ذاته باعتباره عنصرا مستقلا له قيمته ووظيفته الخاصتان. ولنستخلص بعض العناصر الموجهة من نص لوييس ماسينيون: "الالم هو فكرة حقيقية، علينا استيعابها في اعماقنا، وهو علامة على تحقيق الروحانية، وهو بصمة المقدس، وهو الذي يعين هذا الاخير فينا من خلال تجربة الخاص واللامتوقع والضحك والياس والعبث هو لغز الظلم الملائكي هذا الذي يوصل بين عذابنا وبين الرغبة الالهية التي هو صورة لها والتي عليه ان يسلمنا لها".

ان رسالة المسيح الحقيقية لا تؤتى ثمارها الا حيث يوجد تشبه، اي تشبه داخلي بالمسيح، وذلك بمعاناة العذاب كما عانى هو، من اجل حب النفوس

هذا التصور للعذاب كطريق مطهر لبلوغ المعرفة الالهية موجود ايضا عند (ويسمان). وفي كلمات قريبة من كلام (بلوا) يقول: "ان الهدف الوحيد المقدر للحياة هو العذاب"



وخلاصتها، وذلك سدادا للدين بواسطة شفقة تعويضية. ان النفوس التي تحب الفقر، والدونية، والعذاب، لا يمكن ان تخدع. هبة الذات طلبا للعذاب. الشفقة سعيا للفرح. كل هذه التوجهات لابد من فحصها كلمة كلمة، لانها تكون وهي مبحرة ومتجانسة بعضها مع البعض الاخر، عناصر نظرية ماسينيون العملية عن العذاب. ان العذاب ليس غاية وانما وسيلة، وليس المطلوب التشبع بالالم بواسطة اشباع لذات انانية مغذية للذات، انما المطلوب الارتباط بالآخر؛ وبالتالي الانفتاح على الله. ان قبول العذاب لهو الارادة العظمى لمعرفة الله، فالعذاب يملك قيمة الهية وهو مؤشر لبلوغ الحقيقة، وهو الاثر المحسوس لها، وهو وسيلة للفهم والتجريب؛ فهو في ان واحد وسيلة وعلامة، وثمة وجه اخر: ان العذاب وحده يبيح ادراك وجه المسيح بواسطة التشبيه المتزايد به، فيما ان المسيح هو الحقيقة، فالعذاب كذلك هو الحقيقة. ان الاختيار الانساني للحقيقة والالوهية يمر بالاختيار الاختباري للالم، وثمة موافقة من قبل البدل، اي الذي يضحي بنفسه تطوعا، اي الشهيد، تسبق مسيرته نحو الحقيقة بواسطة العذاب، والبدل بهذا المعنى هو النقيض تماما لكبش الفداء؛ فالفاروق بين كبش الفداء والبدل- اذا ما رجعنا للوصرة التي قدمها (ويسمان)- هو الفارق نفسه هي الشجرة التي اصابته الصاعقة وبين مانع الصواعق الذي يضخ، وكان هاجسه حقنة، الشحنة الكهربائية التي تتبعر في السحاب الكثيف، فاحدهما ضحية عبثية وتعسفية، والاخر هو تجسيد لتلبية الداء للتضحية، فهو واع ومعد منذ البداية لتحقيق ذلك العنصر الاخير: ان العذاب مطهر؛ فهو يطهر القلب بحرارة النار الملتهمه التي لا ترحم. هذا التصور العذاب باعتباره وسيلة مطهرة لبلوغ الالهية بواسطة الرأفة بالآخر، والتي هي سطح الاتصال والنفاذ بين الانسان والله، هذا التصور يرجع اصله في رينا (بلوا)، ولقد ذكر كتاب Albert Beguin (البير بيجان) Bloy mystique de Ladouleur (بلوا صوفي العذاب) في هامش وفي تصدير الطبعة الثانية (للحلاج)، وفيها ذكر (بلوا) مع Foucauld (فوكو) و(ويسمان) من بين من ذكروا من الشهود على المقدس ذي الرصيد الذي لا يلي. وكثيرا ما يعرض (بلوا) و(ماسينيون) لشخصيتين مكفرتين عن الذنوب ورعوفتين

هما (جان دارك) و(ماري انطوانيت)، هل من الضروري التذكير بانهما (بلوا) و(ماسينيون، من حجاج (لاسالت)؛ وجعل (بلوا) من العذاب الحقيقة الالهية- الانسانية في شكلها النقي. يقول: "العذاب! ها هي الكلمة الكبرى، ها هو الحل لحياة انسانية على الارض! هو الدافع لكل ما هو علو، وهو كالغزال لكل الصنوف الجزاء، والمعيار الذي لا يخفى لكل انواع الجمال الاخلاقي، ان العذاب ضروري؛ فبدون عذاب يكون المسيحي كالحاج بلا بوصلة، لن يصل ابدا للصليب، وحيث يؤكد ماسينيون ان العذاب هو صورة الرغبة الالهية فينا، يضيف بلوا ما نذكره هنا من خلال ما قاله عنه Albert Beguin (البير بيجان): "ان الالم يبدو له كوجه القبلية الالهية الملتفت للبشر منذ السقوط".

هذا التصور للعذاب كطريق مطهر لبلوغ المعرفة الالهية موجود ايضا عند (ويسمان). وفي كلمات قريبة من كلام (بلوا) يقول: "ان الهدف الوحيد المقدر للحياة هو العذاب، فمن هنا يدري اذا لم يكن الكوروفورم (المخدر) محركا للثورة، واذا لم يكن جين الخليقة من العذاب عصيانا، اي اذا لم يكن اقرب الى الشروع في التناول على ارادة اسماء، فلولا العذاب لكانت الانسانية حقيرة للغاية، لانه هو وحده القادر على السمو بالنفوس بواسطة تطهيرها". ان الفضيلة تكتمل في العجز، وهي لم تتولد في اغلب الاحيان بدونه، ولتلقى هنا ثانية بالمؤلفين الذين سبق لنا نكرهما، اولهما هو (بلوا دي سانت بونيه) الذي يعرض في مؤلفه (العذاب) الذي سبق ذكره افكارا تكاد تكون شبيهة، يقول: "ان العذاب يعجز الكائن بلهيب النار لتطهيره"، ويستحضر (واقعة العذاب الغامضة) والبشر الذين لا قيمة لهم عادة الا باحد الطريقتين: "فهم اما ورفوا الكثير عن اجدادهم او حققوا كل شيء بالعذاب". والرجوع عنده هو (تجديد الدورة الدموية للانسانية)، ولتستحضر مرة اخرى (جوزيف دي ميتر) الذي يقوم مقام الافق الفكري لهذا المسار التراجعي: "ان الانسان لن يمكنه العيش في هذا العالم الخالي من صنوف المصائب؛ ان سينتهي به الامر عندئذ الى ان يصبح غبيا الى درجة نسيانه تماما لكل الامور السماوية، بل ونسيانه لله نفسه، ولا يوجد انعس من الانسان الذي لم يجرب ابدا الحظ العثر فالالام بالنسبة للانسان الفاضل هي كالمبارك بالنسبة للرجل العسكري، فهي تحقق كماله وتضاعف جدارته. ان الانسان ما يربح من العذاب الارادي".

ولنذكر نقطة التقاء اخيرة بين (ليون بلوا) ولويس ماسينيون: رؤيتهما للتاريخ؛ فالتاريخ بالنسبة لكليهما يتحقق بمعنيين: فهو اما ينسج او يدبر، واما يحاك او يخطط له؛ فهو نسيج وكتابة رمزية.

٣- التذير: يحيلنا التذير عند لويس ماسينيون لاتحاد ثلاثي هو- في ان واحد- ديني وفلكلوري وادبي فهو من جهة سيمبولوجيا صوفية قدرية نقل له فكرتها- Villiers de- Adam (فيليب- دي ليل- ادم)، واستخدم هو بدلا من معطى فولكلوري قديم له اتاره من Les legends de La mort (اساطير الموت) لصاحبها Anatole le Braz (اناتول لوبرا)، وهي من جهة اخرى تصور للزمان خاص بالتصورات الاسلامية التي تكذب السيلان النهري العريض والبطيء للزمان عند هيراقليس، ذلك التصور الذي استبدل به تصوره لعفرة لامعة من اللحظات المنتقاة، او لتألق متتاليات من النشوة شديدة الصغر، ولا بد لنا في رأينا من قراءة صورة (مجرة اللحظات) الشهيرة عند ماسينيون على هذا النحو: ان الالام من اللحظات النقية تبرز متباينة

فوق خلفية ليالي التاريخ الكثيفة، وعندما تتجمع من جديد معا؛ فان وحدتها هذه ستكون خاتمة لنهاية الزمان، هي رؤية للزمان تنتمي لمجال مفاهيم الروح القدس، فالنذير ليس هو الحدث، بل هو المبشر به، والاعلان التراجيدي عنه والمؤنن به، الا ان النذير يستدعي بنبؤيا، لحظة النشوة بفضل قدرته على الاستجلاء الخارق. في رواية النذير (لصاحبها فيليب دي ليل ادم) الصادرة في ١٨٦٧ يحذر البطل وهو جندي قديم في افريقيا، بفضل سلسلة من (الهوسات) المذخرة والمزينة بالمصير المأساوي الذي يتربص بصديقه القاص Maucombe (موكومب) اشاع درس المستقبل تجاه الماضي، الذي هو حاضر السرد، بعدد من النذائر الشبيهة بموجة الصدمة المؤذنة بالحدث نفسه، كان لويس ماسيليون يعرف هذه الحكاية، كما كان يعرف الموروث الفولكلوري الذي استندت اليه، ولنا ان نظن ان مصدر استرجاع كلمة (النذير) في كتاباته هو قرائته لها (لهذه الحكاية). وستعطينا بعض الاستشهادات على تحديد استخدامه له (للنذير) بشكل افضل، كتب يقول عن الابدال: "هم يتنبئون في العالم الفاني وجودا لا يذبل للحقيقة المقدسة التي يرونها تظهر في كل من مر يتحقق فيها انذار النذير بفضل معجزة التحقق"، ان الحدث المنتبأ به يؤدي الى الزمان الذي سيكون مغايرا في المستقبل، وحياتة البدل هي "معروفة من النذائر المؤذنة بالاختيار"، وعن الحلاج كانت هذه العبارات "قال وكرر هذه العبارات مستمعيه الحقيقيين وأنها نذائر استرجاعية ونبوية"، وعى الحلاج ختم القداست الذي سدمع به سيرورة حياته الصاعقة عددا هائلا من النذائر. وكما نرى فان الحياة اي الزمان، هي بالنسبة للصوفي مسيرة تجاه (اللحظة) في طريق ترشد اليه لحظات ذات دلالة لا بد من فك رموزها ومن محاولة تأويلها، كتب ماسينيون يقول: "ان الوقت هو الفاصل الصامت بين لحظتين الهيئتين"، وليس الزمان لمن عرف الاتحاد بالله الا انتظارا وندما يجتمعان حول لحظة النشوة. يقول عنه (النذير) انه "نوع من ايقاع الروحي مقدر له ان يطبع كل مخلوق بعلامته الشخصية والموسيقية في سمفونية الماورا"، فالزمان الخاص بالصوفي له طبيعة تعجيلية: فطول مدة الانتظار التوقعي، ينتهي الى قصر اللحظة الدوي، اي ينتهي الى انفجار النشوة، كما ان له طبيعة انقلابية بما ان اللحظة الالهية لا تفرج الا على العتق، وله كذلك طبيعة تجزيئية، اي ان طول مدة الانتظار الالهية تمهد للزواج الجدي تتكون منه المادة القصير: النذير ثم الجيء الصاعق للعلامة. ولنختتم بقولنا ان هذه المحاولة لتقديم رؤية (اركولوجية) لفكر لويس ماسينيون اذا لم تلغ قدرته الشهابية على التأثير فانها تدفعنا لدراسة شكل مساره على نحو افضل، وذلك اذا ما احسنا عزل نقطة انطلاقه اي موضع اشتعاله. كتب (ليون بلوا) يقول عن (فيليب دي ليل ادم): "تتدلى دائما في طرف اخر فروع شجرة كبيرة وقع عليها اختيار الصاعقة، تتدلى ثمرة اللذة او الرعب، التي يستريح فيها الجوهر الثمين قبل ان يخفتي للابد، ويبدو لنا لويس ماسينيون كذلك عبر (باربي) و(فيليب) و(ويسمان)، و(ليون بلوا)، وكانه البوتقة المجمع والفلكية، اي كانه خاتمة ورؤيا قرن ونصف من الروحية الصوفية الفرنسية التي سيكون اختفاؤها الى الابد- فيما يعتقد البعض منا- خطيرا بالنسبة للجميع.

من كتاب في قلب الشرق قراءة معاصرة لاعمال لويس ماسينيوس صدر في ١٩٩٩

اتصالاتي بلورنس عام 1917

كنت نائب ضابط في فرقة المشاة الاستعماريه فاذا بي اتحول الى نقيب في منطقته تي تي في 15 آذار 1917 ثم انفككت للانضمام الى البعثه الفرنسيه - البريطاليه سايكس - بيكو في مهمه خاصه ثم فوجئت باستدعائي للمساعدة في وضع الاتفاقية - الموقعه في لندن عام 1917 بين بريطانيا العظمى وفرنسا - موضع التنفيذ تحت رعايه اللورد كتشتر اتعيين مناطق النفوذ الفرنسي الانكليزي في الشرق الادني وقد اصطفاني جورج بيكو بصفتي مختصا بالشؤون الاسلاميه العربيه من بين مساعديه الثلاثة لان الاثنين الاخرين هما كاستون موكر وروبير كولوندر دبلوماسيان محترقان



لويس ماسينيون

ترجمة / الدكتور اكرم فاضل

بدوي مقنه واكن انقضت تسع سنوات على تنقيباتي في قصر الاخضر . ومن نك اليوم شعرت بأن لورنس يتهرب من كل محاوله للحياة المشترك هاذ قال لي في الختام : انك تحب العرب اكثر مما احبهم أنا .

وفي نهاية ايلول 1917 وبعد فقرة درست خلالها المرتد القطلوني اسيلم دي توريد ابن الترجمان في كتابه الاديب الاسلامي ارسلني سايكس وبيكو الى قناة السويس تجاه الاسماعيليه من الجانب الشرقي في المعسكر الذي شكل خلقي ونوري السعيد الجيش العربي الذي توجب عليه ان يصعد مع فيصل من العقبة في اللحظة المرتقبه الى طفليه ومعان . فكتبت دراسته اجتماعيه عن هؤلاء المتطوعين الذين كان في صفوفهم مسيحيون من الموصل وبعض يهود اليمن ولكن سرعان ما ولي الادبار هؤلاء اليهود . نعم لقد ولوا الادبار مذعورين وقد ارتبطت انثن بفؤاد الخطيب وهو من اسرة ماجدة من حبرون وله ثقافه انكليزيه انن قد اسقط كرة الفرنسيين .

وفي احد الايام تلقيت الامر المفاجئ بالتوجه الى كلاب امام غزه لدى القيادة العليا على عتبه الصحراء في هذه الجزيرة العربيه المنوعه التي اعتبرت فيها خارجا على القانون قبل تسع سنوات وفي فورة بدائيه للغاية وعارمه للغاية فانتظرت نصيبي الذي كان منوطا بلورنس وكنت بعيدا عن الاوهام لقد اراد رؤوساتي اعطائي ميزانيه ضخمه لغرض افساد البدو السوريين فكان علي ان انقل معي ذهابا وكانوا سيغتالونني على وجهه التأكيد والاوكد من ذلك انني شعرت باللعنه تنصب على رأسي بشراء الاصدقاء - أنا الذي

لقد تحدثت عن العراق مع لجمان وعلى الاخض مع هوكارث رئيس لورنس الذي كان يطلق عليه اسم المهر اللعوب والذي اوضح لي سلوكه ووحشيته اللامنطقيه ونهنيته المتألقه وكيف انه وصولا الى تحرير تقارير البعثه في الصحراء كان هوكارث يجلس نفسه في غرفه مع لورنس ويأخذ بخنائه لكي يجلس فيملي عليه اجوبه نكيه على اسئلته .

وفي يوم 8 آب كنت مع لورنس وجها لوجه في المكتب العربي مدى ثلاث ساعات تقريبا وكانت معي اسطورته السابقه فرأيت ببالحه الدهشه انكليزيا ظل فنيا منقلتا من الموضوعات كأنه احد الخارجين عن القانون ولكنه بالغ التكتم وبيع ومر مذاق كاله خفر الفتاة اليافعه ثم كال عبارات قاسيه مع صوت خافت كصوت السجين .. كنا نرطن بالفرنسيه والتكزيه واخيرا بالعربيه لمدة طويله ونخطب فيها خبط عشواء . وكنت استعدت لغتي العربيه منذ ثلاثه اشهر في اسلوب الاسلام العصري في مجله المنار وانا ادين بالفلسفه المبشره بالتصوف فأجابني لورنس بلهجة محلية حماسيه بالغه الصحه ومنتافره وكنت قد نصبت نفسي داعيه للعروبه والاسلام والجهاد المقدس فأحس لورنس بخطر استيلائي المخلص على نفسيه فيصل على حسابه هو فحاول بصوره ملطفه ان يعيدني الى موضعي وهو يكشف لي الستار عن بعض الاسرار السياسيه للاسرة الهاشميه كسر خطه الملك حسين بأن ينادي بنفسه لا كخليفة وانما كأمام على طريقه الزيديين في اليمن ولكن تلك كانت خاتمه علم لورنس في اصول الفقه . لقد تام بهجوم معاكس محاولا اعادتي الى عقليتي انقضت كأثار ي السنوي للعالم الاسلامي بالفرنسيه .

نقل الرف البريطانيه الرابع الى مصر من شمال بحر ايجه وارغم فرنسا على ان لاترسل الى جبهه غزه الامقرزة صغيره بقيادة العقيد بيباب فتوزع مسرح العمليات في الشرق بين ساراي مقدونيا والنبي مصر وسوريا . كان ينبغي كذلك ان يقبلني لورنس الذي ادى خدمات كبرى في الميدان وكان مدفوعا ضد السير مارك من قبل زملائه في المكتب العربي في القاهرة كانت الاستخبارات البريطانيه تكره الفرنسيين بصوره حمقاء كما كانت الاستخبارات الفرنسيه تكرههما وتكره الرايطينيين والعرب . رغم ذلك بذل السير مارك كل جهده وساعده في ذلك كلايتون الذي كانت له مكانته لحعلي احوز على ثقته الضباط الانكليز للشؤون العربيه فكلفوني بتأليف كتب عن الاقطار العربيه جمعت موادها دوائر استخباراتهم منذ عهد دوتي وقد كتبت هذه المواد عام 1920 بسبعمائه وثمانين صفحات من القطع الكبير وحملت اسم الوجيز عن الجزيرة العربيه وقد أوحى لي هذه الدراسة بفكرة الكتاب السنوي للعالم الاسلامي بالفرنسيه .

مكلا جده . هنا تظهر بداية الصداقه التي افاضها على الامير حسين صداقه لا انفصام لها حتى الموت صداقه اعتبرتها ضمانه للاتفاقيه الموقعه بالاحرف الاولى بينه وبين كليمنصور في باريس في 6 كانون الثاني 1920 ، تلك الاتفاقية التي مزقها الجنرال غورو في ميسلون ناقضا عهده مما حدا بوزير الخارجية برتلو ان يوفدني للتحقيق رغم الاخطار المحدقه بي . لقد حملت هذه البدايات السير مارك على ان يمضي على قدم المساواة الى لورنس وذلك بتعيين كل منا ضابطا مساعدا للقائد العربي لجيش الشمال تلك الوحدة التي كانت في طريق تشكيلها والتي عهد بها الى الامير فيصل فور احتلال غزه وهذان التعيينان مترامنان في صدورهما من وزارة الخارجيه البريطانيه ووزارة الخارجيه الفرنسيه ولا يمكن ان يكونا فعالين الا اذا سمح تطور الوضع العسكري بصيانته التوازن بين القوى الانكليزيه الفرنسيه النصوص عليها في اتفاقيه سايسك - بيكو .. ولكن فشل الجنرال مري امام غزه حتم

اما السير مارك سايكس مساعدا للورد بلفور في شؤون الشرق فلم يكن له الا نوع سكرتير خاص وهو عربي فلسطيني اسمه جورج ولكن الحكومه الانكليزيه كانت ترسل بين الحين والحين اللورد لويد المقيبل وكان سايكي يتصل بلندن مباشرة بواسطه الشفرة ومثله يفعل بيكو بالنسبه لباريس وذلك من فوق رأس القائد الاعلى في القاهرة الجنرال مري ثم الجنرال اللبني ومن فوق رأس الوزير الفرنسي فيس القاهرة . لقد وصلت في 21 نيسان 1917 الى بورسعيد عن طريق روما واتصلت بالبعثة فورا بالجيش وبالشخصيات العربيه . وبخصوص السير مارك سايكس الذي اخصني بصداقه حقيقه يتوجب على ان اقول هنا كما قلت سابقا بمناسبه موته المبكر في باريس راحع مجله العالم الاسلامي 1919 - ص 12-15 أن الرجل كان متشيعا بالتفهم البريطاني الرائع للقيام بأبناءه مجموعة دولية تكون فيها الامم الصغيره مالكة لحقوقها المصونه في الوجود تفهم غريب على الخرافية السياسيه للقارة لقد وضعني هذا السياسي تحت تجربته عندما طلب الى تحرير محاضر للمؤتمرات الدبلوماسيه الخمسة التي انعقدت على ظهر البارجه نورثبروك كنا على ظهرها ضيوف الاميرال الاعلى ويميس ثلاثة بين الوجهه وجدة مع الامير فيصل 16 - 18 مايس واثان مع الملك حسين 18 - 20 مايس في

ماسينيون

هذا الشيخ الرائع

مائة سنة مرت على ولادة المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون والاحتفال بهذه الذكرى مناسبة كبيرة في حجم ذلك الشيخ الرائع الذي يعد آخر عظماء الاستشراق الأوروبي وربما أكبر مستشرق في القرن العشرين محاضرات وندوات عديدة تنظم في القاهرة ولندن وفرنكفورت وكوبنهاغن و ابوظبي وميلانو والولايات المتحدة الأمريكية والمغرب..



د. رسول محمد رسول

اما فرنسا فقد كرمته الاونسكو واشرفت على ندوة في كوليج دو فرانس دامت ٩-١٠ كانون الاول / ديسمبر والقيت فيها محاضرات تناولت تاريخ ماسينيون ابراهيم مذكور رئيس المجمع العلمي للغة العربية في القاهرة والانثر وبولوجيا التاريخيه للاسلام جاك بيرك استاذ فخري في الكوليج دو فرانس وعلاقة ماسينيون ببغداد جورج مقدسي استاذ في جامعه فيلادلفيا وقد ناقشت الندوة ايضا الحوار الاسلامي المسيحي ودراسه في اعمال ماسينيون وفي مواقفه العديدة من قضايا وصرعات عصره.

اكتشف ماسينيون الشرق والاسلام مبكرا في سن العشرين سافر ذلك الطالب الذكي الى مديه فاس سنة ١٩٠٤ مقتفيا اثار ليون الافريقي الذي كان موضوع دبلومه للدراسات العليا في التاريخ هناك احب اللغة العربية واكتشف الاسلام منذ ذلك التاريخ بدا تجواله في العالم العربي من الجزائر الى القاهرة ومن فلسطين الى دمشق دارسا وباحثا ومنقبا وفي بغداد التي زارها لدراسه اثار النبي برفيعة الاجبر الحاجك ذلك التصرف الكبير الذي عشقه وكتب عنه كتابا ضخما الام الحلاج يعتبر اهم اعماله واعمقها لقد انبهر ماسينيون ذلك الكاثوليكي الورع بعشق الحلاج لله وللحقيقه رأى فيه شهادة رائعة عن البطولة الروحيه وتحديا دائما بل حتى متيرا للمسيحي الغربي الذي لم يكن الايمان بالنسبه اليه يعني التضحية المتطرفه بالذات التي كانها بالنسبه الى الصوفي وهو لم يتوقف ابدا عن تقصي اثاره وتتبعها ورسدها في الادب العربي والاسلامي وفي كتابات المنصرفين المسلمين باحثا عن دليل على الوح الانسانيه عبر المكان والزمان لقد كان ماسينيون يؤمن ايمانا عميقا بالمسيحيه وقد حاول ان يوظف معرفته بالمثوصفه لايجاد تقارب بين الديانات الثلاث الاسلام المسيحيه واليهوديه. وغايته من ذلك ليست في ان يوفق بين تلك الديانات الكبرى وانا يؤكد على العلو الانسانيه وما تتفق فيه لتقبل كل ديانته الديانتين الاخرين بكل خصوصيتها

انه يبحث عما يسمه ريجيس بلاشر ب ابراهيمه ماسينيون . لكن ابتهارة بالحلاج لم يمنعه من ان ينجر دراسات جيدة عن الاسلام لقد كانت اهتمامات ماسينيون واسعه ومتنوعه فهو مؤرخ وعالم اثار وعالم اجتماع ولغوي وطوبوغرافي وقد مكنته نكاؤه الحاد وسعه اطلاعه من ان يعد بحثا عديدة عن المدن الاسلاميه والموسيقى والحداثق والمساجد فماسينيون ينتمي الى ذلك النوع من المستشرقين الذي يتميزون بمعرفتهم الموسعه انه تتويج للاستشراق الكلاسيكي الجامح وهو يجسد ايضا نهايته لان ذلك النوع من الاستشراق الذي يمثلته جب ايضا قد انفجر بعد الحرب العالميه الثانيه واصبح موزعا على العلوم الانسانيه لكنه ظل وثيق الصله ب الذهيبات الاستشراقية التقليديه لقد درس ماسينيون الاسلام في القرون الوسطى دراسه تاريخيه وسوسولوجيه فكتابه عن الحلاج هو ايضا دراسه للحضارة العباسيه ولابرز رجالاتها ومؤسساتها وانجازاتها وفي دراسه ل معجم التصوف الاسلامي يبحث ماسينيون الظروف الاجتماعيه والاقتصاديه والسياسيه التي افرزت التصوف وهو لم يهتم بالاسلام كدور فقط وانا كعالم اجتماع فقد اهتم ماسينيون بحاضر الاسلام ومصيره ازاء الحضارة المعاصرة ويتجلى ذلك في كتابه دليل العالم الاسلامي الذي يحتوي على معلومات كثيرة عن الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي للبلدان الاسلاميه وباختصار فقد كانت دراسته للاسلام متنوعه وشامله وعميقه. المنتصر الناضل

الثاني ١٩١٧ وعند موته كتبت الى ديدس رساله اجابني عليها برسالة شائقة للغاية. وفي ٩ كانون الثاني ١٩١٧ لقيت لورنس فألفيته محزونا على المستقبل العربي وذلك في معسكر غزة وكان يفكر بلبنان ويرضي باعطائنا لبنان ولكن لا اكثر وفي العاشر منه استدعى الندوب السامي جورج بيكو الى مقر القيادة العليا العربية عن طريق دير سويد لسماع بشرى استسلام القدس فأخذني معه وكنت اتحسس الموضوع منذ ثلاثه اشهر. في ١١ كانون الاول كان الدخول الرسمي الى القدس فتفتحت ذهن الجنرال بولس صيانه ماء الوجه بعته سايكس - بيكو وزارة الخارجيه البريطانيه - عن الصيغه البروتوكوليه التاليه : السيادة الاولى للانبي وبيكو . السيادة الثانيه لبولس وبيبياب . السيادة الثالثه لضابطان انكليزيين مع مساعد بيبياب . السيادة الرابعه للسير ويندهام ديدس الرئيس الاعلى لادارة الاستخبارات الشرقيه هو رجل نادر التميز احتفظ له دائما بعاطفه حيه وشأن لورنس تجاهه كشأنى وتلتها سيارات اخرى حيث كان بين الضباط الانكليزيين رئيس بعته شبح لايطالبا وملحق امريكي . لقد وطئت اقدامنا الارض على باب يافا في الساعه الثانيه عشره قضيت تلك الاصبوحه مع لورنس وقد جرد اعلان الاحكام العرفيه الذي اصدره اللبني بعته سايكس - بيكو من كل عمل دبلوماسي امام المدينه المقدسه لان لندن تطمع فيها وحدها .

وهذا اللبني بيكو وشدد التهديد باعتقاله اذا ارتكب ايه مخالفه وكان لورنس الى جوارى وكانت هزيمته مساويه لهزيمتي بل اسوأ من هزيمتي فقد فتح لي نبذه الفطري انذ عن مكنونات قلبه لقد كلف لورنس بايهاهم الملك حسين بأن القدس ستسلم له وعلم توا بمساومات اللورد بلفور مع اللورد روثسيلد لانشاء وطن قومي لليهود لقد كلفته حكومته بخدع مضيقه الملك حسين فأخذ لورنس يشعر بتدنيس المقدسات المرتكبه ضد الكلمه المعطاة للعرب العهد مظلما شعرت انا بدوري بتدنيس المقدسات عند فاجعه ميسلون . لقد دخلنا الى المدينه المقدسه تحت شعار الخديعه فجرح لورنس في صميم وجدانه بحيث اننا وصلنا متأخرين الى الغداء الذي اقيم على شرف اللورد اللبني قرب عين كرم في مدرسه بروتستانتية تهدف الى تمييع اليهود... كان اللبني خصما للصهيونيه الى حد ما وكان نقدا علينا ان نجاز ساحه كبيره تحت عيون الضباط وقد اشرت على لورنس بربط كتيفيه اليسرى فقال لي هل تعتقد انني احترم هؤلاء الناس اقل احترام ؟ وقام في تلك اللحظه بحركه فتح بنطلونه للتبطل بمواجهه مكان الدعوة وكان في حركته هذه يقلد توماس مور حيال برج لندن ولكن كان يعوزه مسرح توماس مور. وعادت البعثة الفرنسيه مساء اليوم نفسه المصادف ١٤ منه لتقييم في القدس بينما عاد لورنس الى جانب فيصل .

لم يكن لفيبي منزله لورنس ولم يتعلم العربي هالا ببطء ولكن نظرته كانت صائبه تجاة لورنس فان السعوديين كان لديهم هيكل عسكري واجتماعي امين في الجزيرة العربية. وصل ثاري من لورنس اسرع مما توقعت فمذ عام ١٩١٩ ترك لويد جورج لنا فيصل بفعل هياج لورنس وفي ١٨ تشرين الثاني طلب فيصل الذي لاحت مخايل ولائي له بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ في تكليفه باجراء المحادثات بشأن المعاهده الفرنسيه السوريه . ولكن رساله الخدمه العائده لي والموقعه بتاريخ الاول من كانون الاول ١٩١٦ من برتلو باسم كليمنصو ولا الاتفاقيه الموقعه بالاحرف الاولى في ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ حالتا دون غدر استعمارنا وجعلنا نخون عهدنا في ميسلون وكانت لقاءني الاخيره مع لورنس في كانون

عرف الضيافه المقدسه للاعراب لقد وصلت الى السويس في ١٨ ايلول مع الجنرال موكو النقل ٩٥٠٠٠٠ فرنك ذهبي معنونه الى امك حسين وقد قص على الشريف ناصر بعد ذلك بأي حركه مخيفه مزريه قذف لورنس بالجنهيات الانكليزيه في الراحات المفتوحه لتلقي الضربات الشديدهات لقد تركت الجبهه وكتبته المشاة الاستعماريه السادسه والخمسين . في ١١ تشرين الاول استقبلني كلايتون ثم الجنرال بولس رئيس القيادة العليا . و في ١٢ منه نصبت لي خيمه في الصحراء وجرى لي حديثان طويلان جدا مع لورنس

لقد تحدث لورنس ليس عن مستقبل بنينه سويه واما عن نوع من التوحد والانفراد للآئين في انفصال غريب عن العالم فجعلتني أفكر بنوع من الحريه الجوهرية المصنوعه من تزهد بالغ التخلي بحيث اصطدام به كل أيماي المنجرد انه يريد ارضا لا يملكها احد. وفي ١٣ تشرين الاول استدعاني الجنرال بولس ليخبرني على لسان الجنرال اللبني ان اللبني قرر الابراق الى وزارة الخارجيه البريطانيه برفضه تنفيذ تعييننا المزدوج اي تعييني وتعيين لورنس لدى القيادة العربية العليا لجيش الشمال لقد اختار لورنس اخيرا بيزاني الذي لم يكن له اي خلق دبلوماسي .

ذلك لان لورنس اذا كان قد عاد بالطائرة قبل عشيه من لاقبته فذلك ليقول بأنه سيسقبل اذا صرت معه على قدم المساواه عند فيصل . وقيل لي ان لورنس قد ادى خدمات كثيره في الميدان ولذلك لن يدعه رؤسائه يستقبل وازداد الجنرال بولس مازحا بأنهم ليسوا مع ذلك على رأي لورنس ولأن اللبني طلب بأن يقدمني الى من اخبره بأن لورنس قد راهن على حصان خاسر لذلك ذهبت لتحية فيلي في خيمته فوجدته طافحا بالبشر والحيويه في خدمه استخبارات جيش الهند وقد عقد العزم على اقناع بريطانيا العظمى بلعب الورقه الهاشميه ونحن نعلم ان فيلي دخل بعد سنوات دخول الظافرين مع اين سعود الى الحجاز وان الولايات المتحده نشلت بعد هذا التاريخ بخمس وعشرين سنه الورقه السعوديه والنقط من ايدي بريطانيه العظمى .

لم يكن لفيبي منزله لورنس ولم يتعلم العربية الا ببطء ولكن نظرته كانت صائبه تجاة لورنس فان السعوديين كان لديهم هيكل عسكري واجتماعي امين في الجزيرة العربية.

وصل ثاري من لورنس اسرع مما توقعت فمذ عام ١٩١٩ ترك لويد جورج لنا فيصل بفعل هياج لورنس وفي ١٨ تشرين الثاني طلب فيصل الذي لاحت مخايل ولائي له بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ في تكليفه باجراء المحادثات بشأن المعاهده الفرنسيه السوريه . ولكن رساله الخدمه العائده لي والموقعه بتاريخ الاول من كانون

من برتلو باسم كليمنصو ولا الاتفاقيه الموقعه بالاحرف الاولى في ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ حالتا دون غدر استعمارنا وجعلنا نخون عهدنا في ميسلون وكانت لقاءني الاخيره مع لورنس في كانون



واهميه ماسينيون لا تتجلى في اعماله فقط وانما في مواقفه ايضا فماسينيون لم يكن ذلك الاكاديمي البارد المعزول في مخبره عن العالم لقد كان دائما وسط العالم يناضل عن طريقته لاجل المحبه والعداله ولقد دفعت معرفته العميقه بالعلم العربي وبحضارته مبكرا للدعوة الى استقلاله لقد كان ماسينيون من مؤسسي لجنه فرنسا - المغرب العربي الكبير وقد ناضل لوقف الحرب ضد الجزائر وفي سنه ١٩٥٣ ضام لاجل المساواه بين الفرنسيين ومسلمي شمال افريقيا وللاحتجاج على عزل محمد الخامس ونفيه وحيا للثقافه العربية الاسلاميه محمايه لها من التلاشي قاد ماسينيون حمله شديده على بعض الجزائريين الذين كانوا يريدون المحافظه على سياده اللغه الفرنسيه وتوقفا في الجزائر كما كتب مقالات ورسائل عديدة بعد العام ١٩٤٨ يؤيد فيها اللاجئين الفلسطينيين ويساند فيها الحق العربي الاسلامي والمسيحي في فلسطين ضد ما كان يسميه الاستعمار البورجوازي الاسرائيلي وقبل موته باعوام كان ذلك الشيخ الرائع يزور باستمرار المساجد الجزائريين في سجونهم الفرنسيه وفي الليل يجلس كمتصوف قديم امام العمال المهاجرين ليعلمه مالم يتعلموه ثنائيه ضديه في كتابه الاستشراق المعرفة السلطة الانشاء يذكر ادوارد سعيد لويس ماسينيون مرات عديدة لأعتباره احد كبار المستشرقين في بداية القرن العشرين وفي الفصل الثالث من كتابه الذي يدرس فيه الاستشراق الان وبالتحديد في القسم الثالث المعنون <الاستشراق الانكلو-فرنسي الحديث في ذروة الازدهار> يفرد سعيد صفحات كامله للحديث عن ماسينيون فهذا الاخير عبقرى استثنائي ومن الحمق الا يحترم المرء العبقريه المحض والجدة الطرية لعقل ماسينيون .لقد اعاد ذلك المستشرق الفرنسي حسب سعيد بناء الاسلام ودافع عنه ضد اوربا من جهة وضد سنيته الخاصه من جهة اخرى وماسينيون يحمل الغرب مسؤوليه الصراع بينه وبين الشرق وبينما كان لورانس و امثاله يمارسون سياسة معقدة كان ماسينيون في الشرق >يسعى مع فيصل الى النفاذ الى معنى تراثه لان الفرنسي كان مجبرا على ان يخرج من الشرق بما كان قد فقده من روحانيه وقيم تقليديه وما شابه... واذا كان صحيحا ان ماسينيون ينتمي الى سياق ما وخصوصية وخريطة ثقافيه معينة وهو يظل غريبا في نظرته الى الشرق لانه لا يستطيع ان يتخلى عن ذاته حتى ولو اراد فان اسهاماته الرائعة في دراسة الحضارة العربية الاسلاميه وجرأته على الكتابة عما كان يعد هامشيا محرما و مسانده للنضال العربي سواء في الجزائر او في المغرب او في فلسطين ذلك وحده يكفي كي نتذكر ذلك الشيخ الرائع في ذكره المائة

تعليقات على لهجة بغداد العامية

عبد الحميد العلوجي

ظهر الكتاب بادئ الامر في القاهرة سنة ١٩١٢ على صفحات المجلد العاشر من مجله المعهد الفرنسي للآثار الشرقية مستوعبا اربعا وعشرين صفحة ثم طبع على انفراد بعد ان استل من تلك المجله في السنة نفسها وقد كان عنوانه في الاصل الفرنسي ملاحظات عن لهجه بغداد العربية ومن الأوسف ان يغفل الدكتور بدوي بلاعله الاشارة اليه في البحث الذي عالج فيه حياة ماسينيون واثره وقد قيض الله لترجمه هذا الكتاب الى العربية الدكتور اكرم فاضل الذي استبل في اخراجه بابهي حله واجمل حروف ووشحه بالتعليقات النافعه وزخرفه بست وستين لوحه تمثل مختلف المعالم البغداديه الاصيله التي اوءازر مشاهدات ماسينيون في حواشي بغداد .



تأليف المستشرق الفرنسي المرحوم لويس ماسينيون وترجمه الدكتور اكرم فاضل مدير الثقافة الشعبية بوزارة الارشاد عرض وتعليق الاستاذ عبد الحميد العلوجي عنوان الترجمة العربية يختلف عما اختاره المؤلف للاصل الفرنسي فهنا



هذا ماوددت الاماع اليه عند قراي كتاب المستشرق الراحل لويس ماسينيون في لهجه بغداد العربية وقد اعجبني كثيرا حين بوا التعابير الاصطلاحية لاصحاب المهن والجماعات الحرفية

انما عكس وسجل بصدق ما كان عليه الواقع البغدادى في شيخوخه الدولة العثمانية التي كانت ثققات وجودها تحت ظل الشقاق الطائفي وماسينيون على الرغم من الانتعاش الادبي الذي كان قائما بين الشعراء ومفكري السنة والشيعه انذاك فانه اصبر على تشقق لهجه الدارجه بين الطائفتين المذكورتين وهذا لا ما نقره عليه .. لان ايه محله لم تكن سنه خالصه ولا شيعيه خالصه وانما هي مزيج من هؤلاء واولئك ومهما يكن من شي فان ماسينيون معذور ان ليس مما قدم في كتابه لان بقاءه في بغداد لم يساغرق الا الشتاء واحدا وهو شتاء ١٩٠٧ - ١٩٠٨ فمادنا عساه ان ينتج في مثل هذه البرهه القصيرة ومع ذلك فان ما انتجه ليشير بحق الى المعية مبكرة ينذر وجودها لدى سواه فقد فحص واختبر وامتحن جميع النقاط التفصيلية التي يمكن ان ينطوي عليها اصطلاح شعبي او دواء بائع او اغنية عابرة او اثاث منزلي .. شاع استعماله وألفه الناس وتواتر الانتفاع به خلال عهد طالت فيه احلام النائمين تحت وطاه الفرع العثماني الذي صبغ على بغداد ناطورها الغريب وواليها المجلبل حازم بك . في كتاب ماسينيون زينه خادعه زوق بها

ملاحظات عن لهجه بغداد العربية - وهناك تعليقات على لهجه بغداد العربية والاستاذ المترجم فضل التعليقات على الملاحظات لطغيان تلك على هذة في جميع الهوامش التي انقلت متن الكتاب . لقد سجل ماسينيون في مطلع كتابه ملاحظات عامه على اللهجة العربية البغدادية عطفه العاطف وغير الحريص منوها بما حظيت به اللهجة القاهرية واختها السورية من اهتمام زمرة متحومه من افاضل المستشرقين وكالالو نلليو وغيرهم .. وانني ارى مذهب ماسينيون هذلا لا يخلو من بعض الانتسار والتعسف سوف اناقشه الحساب عندما ينصرف الى امتحان المصادر القديمة الخاصة بلهجات بغداد .

لقد انفرد ماسينيون بحسن لغوي رفيع يعز نظيره بين مشغلي اللغة العامية نساوم تجارها وتعيش نهارها وتلبس ليلها .. باكثر من لهجه ولان بغداد هي احوج ما تكون الى اللغة الموحدة التي تنسق رغبات ابنائها وتمهد السبل امام الدراسات العلمية الرصينة . فما سينيون يأخذ على بغداد لا مركزية لهجتها وقد دلل على ذلك بانقسام الطائفة البغدادية في الرصافة الى مجموعتين على صعيد التفاهم الدراج احدهما - وقد سماها الشماليه وهي الاعظميه والحيدر خانه - تبالغ كثيرا في التزمت والانتواء ولذلك بات تززعها وشيك الوقوع والثانية وقد سماها بالطائفة الجنوبية الشرقية وهي باب الشيخ - تحتفظ بحيوية كامله وببشباب لهجته تام وكلتا المجموعتين من اهل السنة ثم يستطرد ماسينيون بعد ذلك في بيان خصائص الحي اليهودي ومحلات النصارى ليقول لنا اخيرا بان المجموعه الاخيرة المتميزة في الرصافة هي مجموعه الشيعه الهيتاويه التي تحيط بجامع المصلوب ولا ريب هنا في ان ماسينيون حين وزع مسلمي بغداد على سنه وشيعه

طبعه في مدينه لايبزك في المانية سنه ١٩٠٣ بعنوان حكايات عربيه جديدة من العراق . وكذلك وضع المستشرق الاماني فايسباخ كتابا باللغة الالمانية بعنوان ابحاث في اللهجة العربية في العراق تضمن حكايات كثيرة موضوعه باللهجه البغداديه وقد طبعه ايضا في لايبزك سنه ١٩٠٨ فذا عملنا ان ماسينيون انتهى من طبع كتابه سنه ١٩١٢ وانه كان يتتبع باستمرار جميع ما يجد من الدراسات حول لهجتنا منذ علم ١٩٠٨ الى ١٩١١ .. فانه لن يعذر على اغفال هذين الكتابين الخطيرين اللذان شاعا بشكل منقطع النظير في جمع الاوساط العلميه يومذاك كما لن تغفر له غفلته عما كتبه الاستاذ رزوق عيسى في المجلد الاول من مجله لغة العرب في صدد المنحوت العامي واللفظ الدخيل في لغة بغداد وعن محاوله المرحوم عبد اللطيف ثنيان التي كان ينسجها في تأليف قاموس الوام في دار السلام اذ لو اطلع الاستاذ ماسينيون على ما ذكرت لبلغ بدراسته شاطئ الكمال . هذا ماوددت الاماع اليه عند قراي كتاب المستشرق الراحل لويس ماسينيون في لهجه بغداد العربية وقد اعجبني كثيرا حين بوا التعابير الاصطلاحية لاصحاب المهن والجماعات الحرفية والامثال والاغاني والصحافة الهزليه .. المنزله التي جعلها في مضاف المصادر المعتمدة التي يصح الرجوع اليها في الكشف عن تراثنا اللهجوي الخالد . وقد وفق الرجل بعد ذلك غاية التوفيق حين عالج مستقبل لهجتنا وخلص بعض الوثائق المتعلقة بنداات الدروب والمقامات الموسيقية لاغانينا وطابعها اللحني وأعبانا الشعبية وخرافاتنا ... فرحم الله ماسينيون انه كان مواطنا بغداديا قبل ان يكون بارسيا ومتصوفا حلاجيا قبل ان يكون زاهدا .

عن مجلة المورد ١٩٨٤

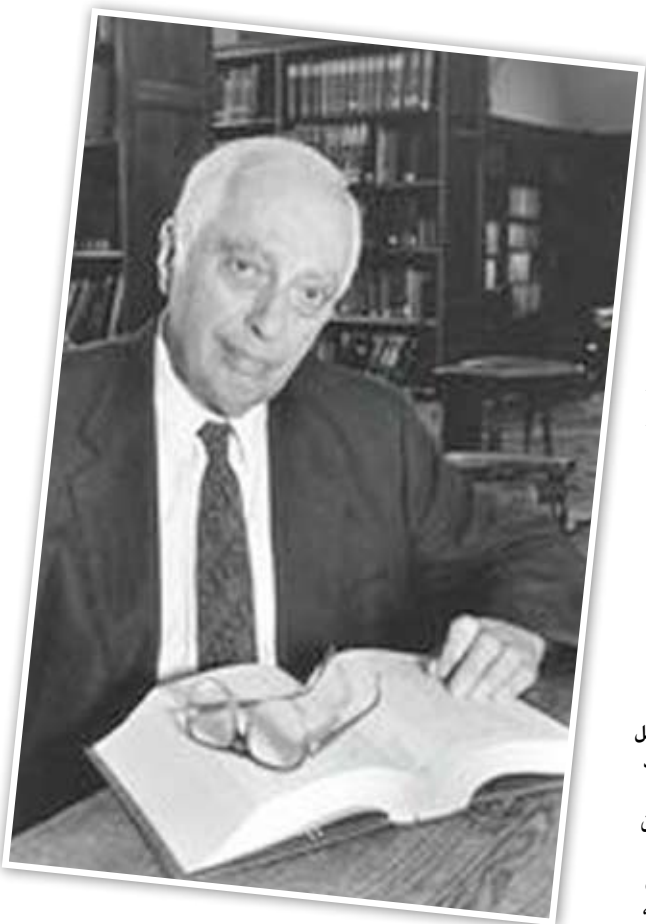
قبل ولادة القاضي الطالقاني بعشرات السنين والتي حفظ لنا العلامة المبداني طائفه كبيرة منها في كتابه مجمع الامثال . اما زاجر الوعاظ التي حام حولها ماسينيون فقد ضاقت دائرتها حينما اقتصر على مقارنه ما قاله وعاظ القرن الثالث حتى التاسعه هجري بما سمعه من افواه المتصوفة عن مصرع الحلاج في تكايا بغداد شتاء ١٩٠٧ اذ لو اصاح جيدا الى ما كان يقوله الوعاظ والملاي والروزخونيه ورواة القصص الشعبي في الندوات والمجالس والمقاهي الشعبية وفي المواكب الخاصه وبعض المواسم الفولكلورية لنظام الحريم .. لكان قد تزود بذخيرة كريمة تدعم دراسته التي وطن نفسه على انجازها متكامله من جميع كاتوليكييا .

اما المؤلفات الحديثه التي رجع اليها ماسينيون في تقويم بحثه فقد قسمها الى مؤلفات عامه وكتب اخرى يطغي عليها طابع التخصص ويبدو انه قد اطلع جيدا على ماكتبه المستشرقان اوبر وجانيه عن خصائص لغتنا العاميه ووقف على ملاحظات يهودا وجبرائيل وسافي الكلداني حول اللهجتين اليهوديه والنصرانيه اللتين انخرطتا في سلك العاميه البغداديه بصورة استثنائية . وانني اعجب له كيف اهمل الاشارة بشكل قاطع الى كتابين رئيسيين كانا مطبوعان قبل واثناء مكوته في بغداد حينئذ فالاستشرق بروفو مايسنر وكان قد زار بابل في نهايه القرن التاسع عشر ضمن بعثه اثريه وقد اتصل بقاص عراقى مجهول يدعي رشيد الجالي ليلتقط منه بعض الحكايات والامثال والتقاليد والاصطلاحات الشعبية التي كانت سائدة في بغداد وفي المنطقه الوسطى من الراق فتم له ما اراد ونشر ما جمعه في كتاب اختار لنصوصه العربية الحرف اللاتيني وجانبها الترجمة الالمانيه وجعل لهذا الكتاب ذبلا استوعب جميع المفردات العاميه وبازاتها ما يقابلها من اللغة الالمانيه وقد

الحديث الذي عقدت على المصادر القديمه الخاصه بلهجات بغداد فقد اتاحت له اقامته المحدوده في عاصمتنا ما دفعه للايمان بان ابرز المؤلفين الذين درسوا لم يودوا الينا الا مقاطع من الدراره الجامعه التي ظلت في حاجه لاي من يقوم بها وذلك - في دعوده - لعدم تحديدهم للقارئ هذه اللهجات التي كانوا شبيرون اليها . وانني وان لم اكن اتوقع غير هذا من المرحوم ماسينيون ولكني اوعاخذه على قهر بعض الحقائق التي لو اطلع عليها لتشتبث بها مسرورا انه لم يكن يعلم ان هناك في احدى خزائن الكتب مخطوطا ذا اهميه بالغه في تحديد المصير الذي ينتظر دراسته عن لهجه بغداد انه جهل ان للكساني رساله في لحن العامه وهي التي نشرها

عبد العزيز الميني سنه ١٩٢٥ تصدت للحن الذي اصاب الفصحى يوم امتزجت ثقافات الامم في بغداد واهمل تلك الثورة الشعبيه التي تبرع بها الجاحظ لاجيال الطالعه في اغلب مؤلفاته ولا سيما البيان والتبيين - الحيوان - ولم يفهم وزنا لبعض الشذرات التي فحلت بها اثار التوحيدي والتعالبي على الصعيد اللهجوي . او ما طفحت به المعاجم العربية من مفردات واصطلاحات عاميه ولكنه بالرغم من هذا واكثر من هذا ادخل في روعنا انه يستطيع ان يرتقى باللهجه العربية القديمه الدراج البغداديه الى ابعد من القرن الثاني عشر الميلاد وذلك عن طريق مصدرين هما : مجموعات الامثال الشعبية وزاجر الوعاظ الشعبيين . والواقع ان ماسينيون اعتمد بدون تحفظ على رساله القاضي الطالقاني في الامثال البغداديه التي جرت على لسان العامه في حدود الربع الاول من القرن الحادي عشر الميلاد بعد ان عثر عليها في خزانه محمد الفاتح ولاتي نشرتها له فيما بعد اي في سنه ١٩١٣ مطبوعه رعمسيس في القاهرة بينما كان عليه فوق ذلك ان يمتحن امثال المولدين التي زحرت بها تصانيف الامثال

كتاب جديد يكشف العلاقة بين ماسنيون والمفكرين العراقيين



في كتابه «مأساة الحلاج بين ماسنيون والباحثين البغداديين» يعيد الدكتور علي حسين الجابري شخصية المتصوف الكبير الحسين بن منصور الحلاج الى دائرة الضوء من جديد. وهي شخصية خلافية بين الباحثين كما هي قضية تتجدد في كل عصر وحولها يدور جدل واسع بين مبررئ لساحة الحلاج وبين مكفر له. والباحث يعرض لتلك العلاقة الخصبة التي ربطت المستعرب الفرنسي لويس ماسنيون ببغداد وبعلمائها الكبار وعلى رأسهم الألوسيان محمود شكري الألوسي وعلي علاء الدين الألوسي والأب انستاس ماري الكرمللي، صاحب مجلة «لغة العرب».

عرض / مازن لطيف

ماسنيون طوال خمسة عقود. وقد حقق عددا من الاخطاء منها قول ماسنيون ان البيكاشية هم من اهل السنة، في حين انهم «امامية اثنا عشرية»، وله شواهد على ذلك موثقة. ولما كانت مأساة الحلاج هي محور اهتمام ماسنيون والشبيبي فقد جاء الحديث عن العلاقة بين البيئة والظروف الاجتماعية والتصوف، «فما دام للزهد في منظور ماسنيون وجود طبيعي في كل زمان ومكان، فان الاستعداد للتصوف هو الآخر ينشأ في العادة من ثورة باطنية تخامر النفوس، فيثور صاحبها على المظالم الاجتماعية، ولا يقف عند مقاومة غيره بل يبدأ بجهد نفسه واصلاح خطيئاته».

وقد لاحظ الشبيبي ربط ماسنيون الصلة بين «المدن» وعمقها الحضاري في حديثه عن الكوفة وعراقها الحضارية السابقة على الاسلام (البابلية) قياسا الى ماضي البصرة وثقافتها التي لا تمتلك حسب ظن

كان الحلاج، كما يقول الشبيبي، قد بشر في بغداد بدولة الروح عشر سنوات كاملات انقضا جميعا في العمل السري حين استقر في بغداد استقرار رجل له غايات بعيدة. وفي ذلك يتفق الشبيبي مع ماسنيون،



و الواقع أن بغداد والحلاج والتاريخ معادلة مترابطة ترايبا عضويا ونفسيا وجغرافيا عند ماسنيون منذ وقت مبكر في حياته فاذا كان قد ولد في عام ١٨٨٣، فقد زار بغداد لأول مرة في عام ١٩٠٧ وهو أمر يكشف مدى تعلقه بالتصوف والحلاج وبالاسلام من جانب، وببغداد والتراث، وبالبيداديين، من جانب ثان، وبمجملة الظروف التي وصلت بالحلاج الى مأساته، وما تركته من اصداء تاريخية واجتماعية وعقائدية بالأمس واليوم من جانب ثالث.

ويقول الباحث ان المعادلة الكبرى التي نتجت عن تفاعلات بغداد والحضارة، والتصوف والحلاج، وماسنيون والمأساة بالأمس، فإنها حاضرة في عيون الباحثين العراقيين في القرن العشرين من خلال توسط بغداد بين الحلاج وماسنيون، لتتفاعل داخل هذا الكتاب الذي يتوزع على محورين الأول عام يتناول فيه ماسنيون وبغداد والحلاج بالأمس بشكل عام. وقد استعان الباحث ببحوث وآراء باحثين عرب كتبوا وأرخوا لماسنيون، والثاني خاص هو اللب والجوهر والصلب وقف فيه عند موقف المفكرين العراقيين من ماسنيون وبغداد والحلاج شيوخ (علي علاء الدين الألوسي ومحمود شكري الألوسي وأصدقاء الأب انستاس ماري الكرمللي ومجمل صدقي الزهاوي وعباس العزاوي) وتلامذة عارضين لنصوص شيوخهم (ابراهيم السامرائي وأكرم فاضل وهشام الشواف) ودارسون باحثون ونقده (عرفان عبد الحميد وحسام الألوسي وعزيز عارف) ومصوبون لمجمل الجهد الحلالي (كامل مصطفى الشبيبي) وموثقون لمراسلات ماسنيون مع شيوخه البغداديين (ظفيا محمد عباس السامرائي)؛ ومع أن الباحث يعرض لجهد الباحثين العراقيين الذين خدموا تراث الحلاج، وتوقفوا مليا عند كتابات ماسنيون، إلا أنه يخصص بحثا مستقلا عن «مكانة ماسنيون».

في دراسات الشبيبي، وذلك للحضور الكبير الذي حققه هذا المستشرق مع الشبيبي في ميدان التصوف اولا، وعن الحلاج ثانيا، وفي البحث عن حقيقة المأساة اولا واخيرا. كان الشبيبي هو الاوفر حظا في الوقوف على مؤلفات

مسلماً! فكان جواب ماسنيون ان الحلاج رجل متصوف روحاني، وان فوارق الأديان لا يحسب لها حساب في حالته! مثل ذلك رواه السامرائي كما روى هشام الشواف قصة سورة الفاتحة التي كان يقرأها ماسنيون في الجامع الكبير

بمدينة باريس على أرواح العمال الجزائريين الذين سقطوا صرعى رصاص الشرطة الفرنسية عند خروجهم في تظاهرة وطنية انتصارا للقضية الجزائرية. والرأي عند الشواف والشبيبي ناشئ من محبة ماسنيون للحلاج والإعجاب به. وبسببه غدا هذا المستشرق الكبير محبا للعرب والمسلمين ومؤيدا للقضايا التي كانوا يناهون بها. وكل ذلك يعزز ما سجله الكرمللي عن ماسنيون وتعلقه ببغداد والتراث والتاريخ باستشهاد الشبيبي نفسه.

كان الحلاج، كما يقول الشبيبي، قد بشر في بغداد بدولة الروح عشر سنوات كاملات انقضا جميعا في العمل السري حين استقر في بغداد استقرار رجل له غايات بعيدة. وفي ذلك يتفق الشبيبي مع ماسنيون، لكنه يختلف معه في الحديث عن «مسيحية الحلاج».

بنص اورده الشبيبي على لسان أبي العباس المريني «يصرف هذا المعنى عن غاية ماسنيون ومن قال بمسيحية التصوف الإسلامي والحلاج». وفي جميع ذلك يحتفظ كل من ماسنيون والشبيبي بموقعه في دائرة الابداع والإجادة والاحتراف بالحلاج.

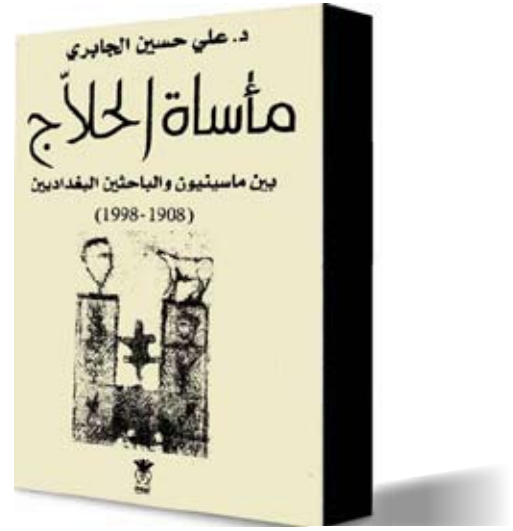
وقد سجل كامل مصطفى الشبيبي في عام ١٩٩٩ في دراسة تقويمية نقدية لاعمال ماسنيون حول الحلاج اكثر آرائه في البحث عن الحقيقة الصوفية والحقيقة الحلالية التي عانى في سبيلها الكثير يستحثه نداء «انا الحق» ودوافعه الوجودية والعقائدية التي بسببها مات الحلاج من غير ان يصرح بالكثير من منظويات هذه المقالة الرمزية، لكنه ترك انرا بالغا في اطار حوار الحضارات والأديان والأمم والشرق والغرب. وما زالت أقلام الباحثين تتناوله بشوق واعجاب، ولا سيما ومضا ته الأدبية الواردة شعرا ونثرا. فليس هناك اعق ولا اجمل من الشعر الصوفي او القطع النثرية الرمزية التي حفظت للأجيال واحدا من ابداع الاشكال الأدبية للغة العربية.

ماسنيون مثل تلك الاصلة، وهو ظن غير صحيح، فيفضل الاصلة الكوفية تطور الخط الكوفي الى «فن» متميز وهندسة معمارية، وتطور الزهد الى تصوف، ومثل ذلك يقال عن الحضارة المزدهرة. وماسنيون ما فتىء يذكرنا بقول رفيق الحلاج (أبو بكر الشبلي) «كنت انا والحسين بن منصور شيئا واحدا الا انه اظهر وكتمت»، فالاعلان والاباحة كانا وراء كشف الحقيقة الحلالية التي صنعت مأساة الحلاج.

والشبيبي وهو يقدم على اعادة تحقيق واخراج ديوان الحلاج يعترف لماسنيون بفضل احياء ذكر الحلاج في تاريخنا المعاصر، ولفت الانتظار الى مأساته فيقول: «في مطلع القرن العشرين احيا ماسنيون ذكر الحلاج حين زار بغداد سنة ١٩٠٧ ضمن بعثة اثرية، فصور قبر الحلاج وغيره ثم كتب عبارته «أنا الحق» بحثا لقاها في مؤتمر المستشرقين في اثينا سنة ١٩١٢، ونشر ديوانه وكتابه (الطواسين) واخباره والنصوص التي دارت حوله، وتوج ذلك كله برسالة للدكتوراه عنوانها عذاب الحلاج، فنبه الابداء والشعراء والباحثين في الشرق والغرب الى اهميته الادبية والتاريخية والفكرية. ثم ان عودة الشبيبي الى مطلع القرن العشرين، وتتبع سعي ماسنيون للاحاطة بالحلاج فكرا ومنهجا، دفع به الى الاستئناس بأراء تلامذته من العراقيين (السامرائي والشواف وفاضل) للكشف عن عقيدة ماسنيون وتوجهاته الفكرية، وبخاصة ما رواه عن الاب القس العراقي دهان الموصللي المقيم في باريس.

فقد كلفه ماسنيون في ربيع عام ١٩٥٣ باقامة قداس خاص على روح الحسين بن منصور الحلاج في البيعة التي يشرف عليها في العاصمة الفرنسية يوم ذكرى وفاته في ٢٤ ذي القعدة هجرية المصادف ٢٦ اذار ١٩٢٢. وذكر القس دهان انه دهش للطلب وذكر ماسنيون بأن الحلاج كان

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرتة
وإذا أبصرتة أبصرتنا



ماسينيون والحلاج

كامل مصطفى الشيبلي

باحث راحل

فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وأيات توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني
وبدا ماسينيون من هذا الوقت المبكر في البحث عن
رجال متسامحين يأخذ عنهم ويسترشدهم فكان
السيد عيل علاء الدين الالوسي (١٢٧٧-١٣٤٠هـ/
١٨٦٠-١٩٢١م) اول من قصده منهم، وكان زميله في
الدرس المرحوم عباس العزاوي الذي اشار الى ذلك في
رسالة له اودعها نجله الأستاذ فاضل. واضاف ان مكان
الدرس كان جامع مرجان الذي تعبنا كثيرا في البحث
عن صورة له حتى وجدناها في (بغداد كما عرفتها)
للمرحوم امين المميز، بطبع بغداد سنة ١٩٨٥ ص ٩٧،
وتظهر بصورته الكاملة قبل ان يقتطع منه جزء
لادخاله في شارع الرشيد.

ونكر الأستاذ ماسينيون انه صاحب السيد محمود
شكري الالوسي (١٢٧٣-١٣٤٢هـ/١٨٥٦-١٩٢٤م)
واخذ عنه وصادقه وكتب في رثائه له يقول (توجعت
وتأسفت اي تأسف... جمعنا الله تعالى في الخيرات
تذكرا من المرحوم الى تلميذ المرحوم الاخص من اقل
تلامذته الفقير الخاضع لربه سبحانه... ماسينيون)
سرد ذلك في سنة ١٩٢٤، كما ورد ذلك في كتاب الأستاذ
محمد بهجة الاثري (اعلام العراق) طبع المطبعة السلفية
بمصر (١٣٤٥هـ/١٩٢٧م)، ص ١٧٤.

وكتب ماسينيون في هذا الشأن رسالة مؤرخة في
١٩٢٣/٧/٢٥ أثناء وجوده في المغرب في مدينة فاس
يطلب فيها معلومات اضافية عن الحلاج، ويذكر تلمذته
له وحبه له ولابن عمه الشيخ علي علاء الدين، وقد
ضمنها عباة جميلة تشع اسلامية وصوفية، منها
قوله: (تمسكت منذ سنين بتقوى الله تعالى واداء
فرائضه ويورع حلاله وحرامه، ونويت الاخلاص لله
تعالى في جميع اعماله، وقمت (اقمت) القيامة في
الادعية راجيا من غفرانه الواسع كل عفو ورحمة)،
وتحتفظ دار المخطوطات والوثائق بهذه الرسالة تحت
رقم ٨٨١، ومن الطريف ان الأستاذ ماسينيون صنع
له ختما باسم لويس ماسينيون وتحت لفظ (عبده)،
وقد صنعه له السيد محمد تقي بهيمي الحكاك (صانع
الاختام) في الكاظمية بتاريخ ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)،
وكان ذلك باقتراح وانشاء وتصديق من استاذ الشيخ
علي علاء الدين قاضي بغداد في ايامه، ونورد بعد

هذا التاريخ وجدنا صورة للمرحوم ماسينيون بالزي
الازهري بتاريخ ١٩٠٩، وهذا يعني انه توجه بعد بغداد
الى القاهرة ليكمل تحصيله الصوفي الخاص بالحلاج
وغيره ليبدأ رحلته العلمية الطويلة التي لم تتوقف
الا بتوقف نبضات قلبه، وكانت مشاركته في مؤتمر
المستشرقين في اثينا سنة ١٩١٢ اول علامات نبوغه:
اذ اثار الاعجاب ببحثه عن كلمة (انا الحق) الحلاجية،
واذاد بها الاب انستاس الكرمل في مجلة لغة العرب
المذكورة وضمناها فاتحة كتابنا شرح ديوان الحلاج
(ص ١٠)، وكان له عند ذلك من العمر اربع وعشرين
سنة.

وكتب ماسينيون كتبه وابحائه المعروفة عن الحلاج

وهذان البيتان لا ينطبقان على الحب
الالهي كما يظن بعض الناس قديما
وحديثا، بل هما قول انسان في انسان
يحبه كما علمنا السراج في اللمع
(ص ٣٦١، ٣٨٤) وهكذا نجدهما قابلين
للاطباق على الحلاج القديم وصديقه
الجديد لويس ماسينيون بعد ان زال
بينهما حاجز الزمن، ويمكننا ان نضيف
شظرا خامسا من عندياتنا (!)، يقول:
نحن روحان التقينا ههنا.

ويقول المرحوم د. محمود قاسم يجب
الاعتراف بان كتابات لويس ماسينيون
عن الحلاج تعد المرجع المعاصر الاول
الذي يجب الرجوع اليه للكشف عن
ملامح تلك الشخصية العجيبة التي كان
لها اثرها الديني في تاريخ الاسلام،

ورأيت الحلاج يرفع منه الطر
ف نحو السماء وهو حسير
قائلا: أنت الله وحدك قيو
ما وأما الألوان فهي تبور
أنت، من حيث الذات، لست كثيرا
غير أن التجليات فهي كثير
إنك الواحد الذي أنا منه
في حياتي شرارة تستطير
وبه لي بعد الظهور خفاء
وله بي بعد الخفاء ظهور
لم شئت العذاب لي؟ ولماذا؟
لم تجرني منه وأنت المجير
كان في الدنيا القتل منهم نصيب
ونصيب اليوم العذاب العسير
قلت: إن المقدور لا بد منه
أو حتى إن أخطأ المقدور
ثم سال السليل بهؤلاء

وعلى كل حال فقد الف ماسينيون مجموعة من الكتب
وتناول حياة الحلاج وكتبه واره ومنها كتبه: الديوان
والطواسين والاعخبار والنصوص الاربعة وما الى ذلك،
وقد حظيت كل هذه المصنفات بحظوة وجاذبية واهتمام
من الكتاب والقصاص والمفكرين من شتى انحاء العالم،
فبالنسبة للطواسين رأيناه يعاد طبعه مع زيادات بقلم
المرحوم الاب بول نويه، وكذا بشار نوري (التركي)،
وبالنسبة لاعخبار الحلاج وجدنا له طبعة سانجة

اصدرها الأستاذ عبد الحفيظ بن محمد مدني هاشم في
مصر، وبالنسبة للبحث في سيرة الحلاج واره وجدنا
كتاب الحلاج شهيد التصوف الاسلامي لطفه عبد الباقي
سرور بطبع القاهرة سنة ١٩٦١، وبالالمانية كتبت
الاستاذة أنه ماري شيميل كتابها عند سنة ١٩٦٨، وكتب
د. محمد جلال شرف كتابه (الحلاج الثائر الروحي في
الاسلام) سنة ١٩٧٠ في الاسكندرية وسامي طرطيل
كتابه (اسطورة الحلاج) سنة ١٩٧٩، واصدر الفنان
سامي مكارم كتابه (الحلاج في ما وراء المعنى والخط
واللون) من دار رياض الرئيس للكتب والنشر في
لندن سنة ١٩٨٩، وفي مجال الابحاث الفرعية وجدنا
لزميلنا المرحوم محمود قاسم بحثه (الحلاج والقرامطة
وماسينيون) الذي نشرته له مجلة اصالة الجزائرية
العدد ٥٧ لسنة ١٩٧٨، وهكذا كتب د. عبد الحكيم حسان
بحثه (الروح اليرانية في حياة الحلاج وتصوفه) في
مجلة جامعة ام درمان الاسلامية العدد ٢، ١٩٦٩.

واستقاء من الاخبار التي تضمنتها كتب ماسينيون في
موضوع سيرة الحلاج ظهرت مجموعة من الروايات
منها كتاب (الحلاج او وضوء الدم) لميشال فريد غريب
الذي طبعه الروائي في مطبعته في بيروت، ومنها رواية
(الشهود والشهداء) للكاتبة العراقية لطيفة الدليمي التي
نشرتها لها مجلة افاق عربية سنة ١٩٧٦.

وفي عالم المسرح كتب صلاح عبد الصبور مسرحيته
الشعرية المعروفة (مأساة الحلاج) التي نشرتها له
دار الاداب، بيروت، سنة ١٩٦٥، وكتب عدنان مردم
بك مسرحيته (الحلاج) بوصفها مسرحية شعرية من
اربعة فصول، ونشرتها له دار عويدات، بيروت ١٩٧١،
وكتب الاستاذ هربرت ميسون (الامريكي) مسرحيته

والتصوف والخطط والادب التي اعجب بها الباحثون
والفنانون والروائيون والشعراء؛ فحذا حذوه (حذو
النعل بالنعل والغدة بالغة) في الاقطار العربية والهند
وغيرها من البلاد.

ولعل اقدم واول من تأثر باعماله وجهوده شاعر العراق
وفيلسوفه جميل صدقي الزهاوي في روايته الشعرية
(ثورة في الجحيم) التي وردت في ديوان الاوشال الذي
طبع سنة ١٩٣٤؛ انظر ديوان الزهاوي الذي نشره وقدم
له عبد الرزاق الهلالي، المجلد الاول، دار العودة بيروت
١٩٦٢ (ص ٧٣٤)، وقال الزهاوي (١٢٧٩-١٣٥٤هـ/
١٨٦٣-١٩٢٩م) في هذا الشأن: (منصور الحلاج
يخاطب الله ويعاتبه).



نحو ست وسبعين فقرة وعبارة تتعلق بهذا الموضوع وهي موزعة على الطواوين (الإلهامات) الآتية: السراج، والفهم، والدائرة، والنقطة، والأزل، والمشيمة، والتوحيد، والتنزيه، والنفي، والأثبات. ومن أهم الاستدراكات التي تعن على ذهن ما وجدناه من تفسير اشاري للحلاج لايات مختارة ذات مضمون ميتافيزيقي وكلامي تمس الحياة الصوفية مسا لصيقا، وقد عدنا السور التي فسرها الحلاج فوجدناه سبعا وخمسين تعد نصف عدد سور القرآن الكريم، ولعل هذا العدد يعني شيئا فيه سر من اسرار الحلاج، وقد تضمن هذا التوجه كتب مخطوطة ومطبوعة لها جانبية خاصة للباحثين في شؤون الحلاج والتصوف.

وبعد... فقد اهتم ماسينيون بوطن الحلاج فسكنه لأول نزوله فيه، والقي فيه عددا من المحاضرات حول الحلاج ووطنه، واهتم بشؤون ذوي دينه والمسيحيين واعان على الرفع من مستوى التدريس في دير الكرملين (المارونيين) الذي كان يرأسه صديقه الأب انستاس ماري الكرمليني (١٨٦٦-١٩٤٧م/ ١٢٨٣-١٣٦٨هـ) الذي يحتفظ دار المخطوطات والوثائق بمئتي وست وثمانين رسالة ارسلها فقيدها الى صديقة الاب الراهب اللغوي الباحثة الكبرى.

ومن ناحية اخرى فقد اختير ماسينيون عضوا مراسلا في المجمع العلمي العراقي بين سنتي ١٩٤٧ و ١٩٥٤، وكانت له محاضرة فيه نكرتها مجلة المجمع العلمي في عددها الاول في سنته الاولى، وكانت بعنوان خطط البصرة، ونشر قبل ذلك كتابا بعنوان (خطط الكوفة)، وقد ورد ذلك في كتاب لزميلنا الاستاذ سالم الالوسي بعنوان (المجمع العلمي العراقي في خمسين عاما) (١٩٤٧-١٩٩٧) طبع المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٩٧.

واخيرا فقد كان المرحوم لويس ماسينيون مستشرقاً (شعبيا) محبوبا متسامحا يحب الناس ويحبونه ولو كان مخالفا لآرائهم وعقيدتهم، وكفاه ذلك تقديرا، وكفانا منه اخلاصا وحباً، ورحمة الله على ماسينيون فقد كان من عباد الله الصالحين واوليائه المقربين... والسلام.

نشر المقال في الذكرى المئوية لماسينيون ضمن كتاب تذكاري باشراف حسن حنفي

والبويضات صدورا عن الجواهر دون الاعراض، وقد الحقنا هذه الرسوم وغيرها بالبحث الحاضر. في هذه المرحلة تجمعت عندنا ملاحظات تتعلق باستدراكات واستكاملات للنشاط الذي بذله المرحوم ماسينيون لتشكيل صورة كاملة للحلاج سيرة واره منها:

اولا: اننا وجدنا في كتاب (شرح شطحيات) للشيخ الصوفي روزبهان البقلي الذي حققه هنري كوربان الذي طبع في طهران سنة ١٨٦٦- اي بعد وفاة المرحوم ماسينيون، ويتضمن هذا الكتاب فصلا طويلا عن شطحات الحلاج تبلغ خمسا واربعين عبارة، وتشكل مادة غزيرة في هذا المجال، وتضيف تفاصيل كثيرة الى ما نعرفه عن سيرة الحلاج واره.

وفي هذا الكتاب فصل عن الطواوين يتضمن عبارات كثيرة لا نعرفها مقترنة بشروح وافية ومقدمات، وقد عدناها فوجدناها

اهتم ماسينيون بوطن الحلاج فسكنه لأول نزوله فيه، والقي فيه عددا من المحاضرات حول الحلاج ووطنه، واهتم بشؤون ذوي دينه والمسيحيين واعان على الرفع من مستوى التدريس في دير الكرملين



(ج) ذيل ديوان الحلاج، مجلة زانكو، جامعة السليمانية، ١٩٧٧.

(د) الحلاج في الادب المقارن، مجلة كلية التربية، طرابلس، العدد ٢١، سنة ١٩٩٦.

وثمة عدد من المقالات وعدد من الاشارات في مصنفات اخرى لكاتب هذه السطور تكمل هذه المعاني. ومن اطراف وجوه النشاط لاحياء ذكرى الحلاج وبيان تصور الناس له اهتمام الاستاذ ماسينيون بالرسوم التاريخية التي عني بها الرسامون المسلمون تعبيراً منهم عن تصورهم لمزلة الحلاج وصره على الشدائد ومواجهته للموت بالطريقة التي قتل بها، ويلاحظ في كثير منها ان راسمها تصوروه قد قتل مصلوبا كالسيد المسيح، بل لقد صوروه مسمر اليدين والقدمين والى جواره المرحم والخل والسلم التي رقي بها الجلال اليه، وينبغي ان نذكر في هذا المجال ان الحلاج الذي قيل انه صلب لم يشنق كما تصوروه رساموه وانما علق على مكان عال بامر الوزير علي بن عيسى قبل موته بثماني سنين بقصد التشهير به واغراء الناس باهانته والغض من قدرته- كما ذكرنا ذلك في كتبنا عن تاريخ بغداد للخطيب البغدادي- واما الشنق فلم يحدث قطعا، وكيف يشنق وقد قطعت اطرافه وحز رأسه واحرق جسده والقي في دجلة رماده؟

وعلى العموم فقد جمع المرحوم ماسينيون من هذه الرسوم تسعة عشر يتفاوت تاريخها بين القرنين العاشر والثاني عشر الهجريين (السادس عشر والثامن عشر الميلاديين).

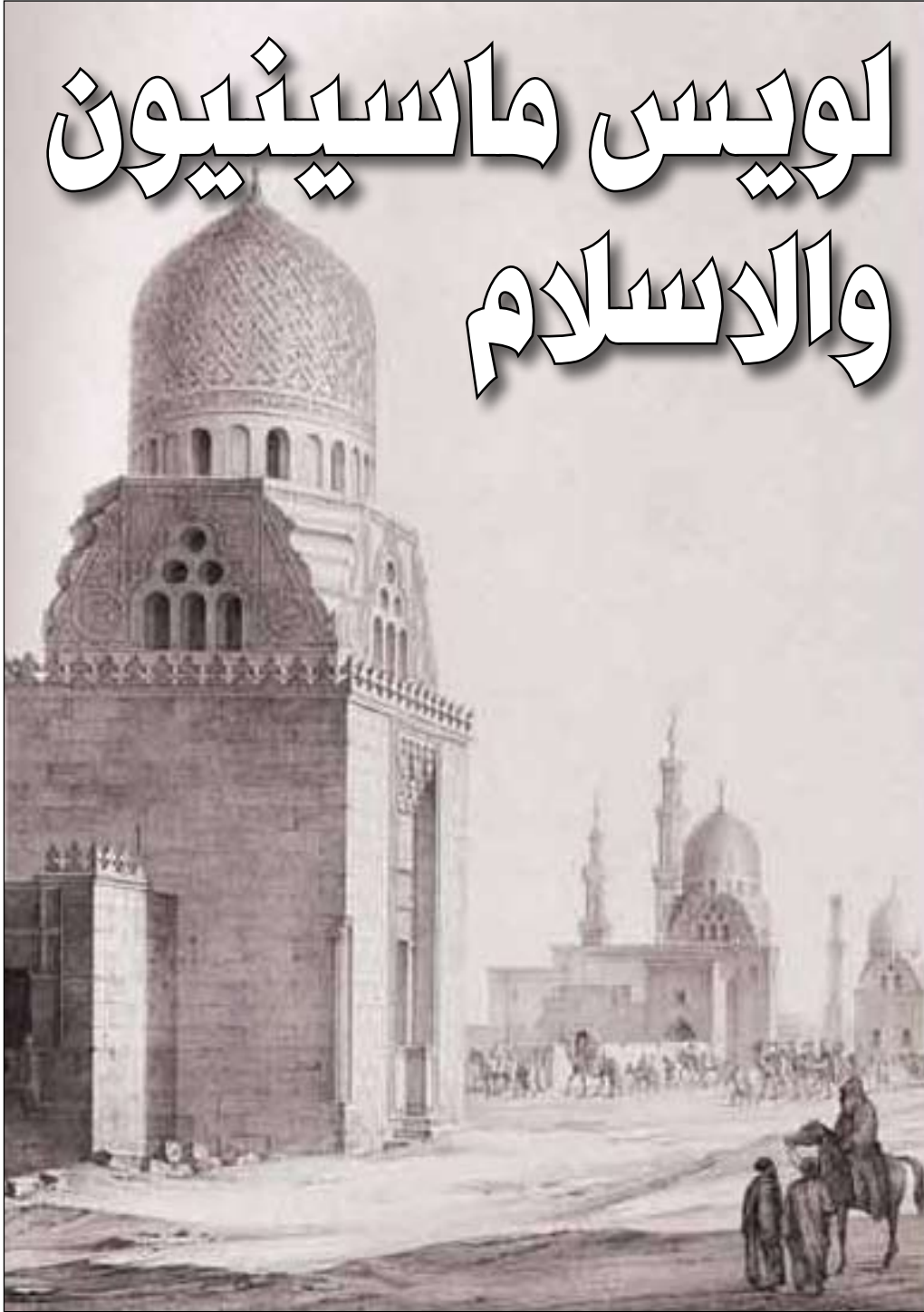
وقد حملتنا هذه الرسوم القديمة على متابعتها والتعبير عن مضمون جديد لها بريشات الرسامين المحدثين؛ فقام الفنان العراقي المعروف الاستاذ ضياء العزاوي برسم ثماني قطع ضمنها مشاهد من سيرة الحلاج والعبارات التي اقترنت بمحاكمته على طريقته الخاصة بالمزج بين الحرف والشكل وان لم يستطع الافلات من اسطورة الشنق التي ملأت عقول الفنانين اسباغا للمهابة والرهبة والاكبر لكابدات هذا الصوفي الشهير، وقام صديقنا الرسام الصوفي الاستاذ شاكر حسن ال سعيد بمحاولة تشكيلية اصيلة، وذلك بشرح ثمانية عشر نصا شعريا للحلاج او تأويلها بطريقته الرمزية النابعة من مدرسته التي ابتداعها بعنوان (البعث الواحد) التي تتجنب رسم الاشخاص وتستعوض عنهم بالحروف والارقام وشقوق الحيطان والكواكب والافلاك والحويمينات

الانكليزية بعنوان (موت الحلاج) وطبعتها مطبعة جامعة نورثام سنة ١٩٧٩، وقد ترجمت هذه المسرحية الشعرية الى العربية بقلم امل الجبوري وطبع في شركة الشرق الاوسط للطباعة في عمان سنة ١٩٩٥. وفي مجال الشعر اثرت اراء ماسينيون وعروضه لاشعار الحلاج في الشعر العربي وعوده بطلا من ابطال الكفاح الانساني بقطع النظر عن انتمائه الفقهي او الكلامي، وجعلوا ينظّمون في شجون كفاحه وثباته اشعارا تعلق به عن مستوى الانسان العادي، وقد تبناه منهم المتحررون واليساريون على الخصوص ومن اولهم الشاعر احمد سعيد الملقب بأدونيس الذي نظم قصيدته التي عنوانها (مرثية الحلاج) التي نشرت في كتابه (اغاني مهبّار الدمشقي) سنة ١٩٦٢، وتلاه شاعرنا عبد الوهاب البياتي باشعار كثيرة منها تلك التي وردت في ديوانه (سفر الفقر والثورة) سنة ١٩٦٥. لكن الشاعر قيس لفته مراد (العراقي) كان اغزر الشعراء نظما واكثرهم اهتماما بالحلاج صدورا منه عن روح صوفية روحية مثله، وقد ضمن مشاعره هذه ديوانه الصغير (اغاني الحلاج) الذي طبعه في بغداد ١٩٦٦، وضمنه اربعين قطعة شعرية في مختلف التوجهات الحلاجية والشخصية.

ومن الطبيعي ان يكون لكاتب هذه السطور اسهامه في شؤون الحلاج تعبيراً عن حبه له من ناحية، واعجابا بماسينيون واعترافا بفضلته من ناحية اخرى، ونورد هنا الكتب والبحوث التي اسهم بها في هذا المجال:

- ١- الكتب:
 - (أ) ديوان الحلاج الذي اسبغ فيه على النصوص الحلاجية روح عربية واضحة تعادها اذان النقاد والباحثين والقراء العاديين، وظهرت الاولى منه في بغداد سنة ١٩٧٤، والطبعة الثانية المزيدة المراجعة سنة ١٩٨٤، والطبعة الثالثة في دار الجمل في المانيا سنة ١٩٩٧.
 - (ب) شرح ديوان الحلاج، طبع بيروت ١٩٧٤.
 - (ج) الحلاج موضوعا للاداب والفنون الشرقية والعربية، طبع بغداد ١٩٧٦.
- ٢- الأبحاث:
 - (أ) شعر الحلاج، مجلة الرابطة (النجفية، العراقية)، العدد، ١٩٧٦.
 - (ب) مصنفات الحلاج، مجلة البيان (الكويتية)، العدد ١٢١، ١٩٧٦.

لويس ماسينيون والإسلام



بيير روكالف

ترجمة / عبد الرزاق الأصغر

وُلد لويس ماسينيون عام ١٨٨٣م في بلدة نوجنت المارن (٢) بفرنسا، لأسرة ذات مستوى ثقافي مرموق. وتعاون، وهو في الرابعة عشرة من عمره مع بعض أصدقائه في المدرسة الثانوية، على إصدار مجلة صغيرة سمّوها "نحلة فرنسا". وارتحل مع والديه إلى ألمانيا والنمسا وإيطاليا والجزائر. وفي عام ١٩٠١ نال شهادة البكالوريا - فرع الآداب والرياضيات، ثم نال شهادة إجازة في الآداب فيما بعد. أدى خدمته العسكرية في مدينة روان بين عامي ١٩٠٢-١٩٠٣، ثم زار الجزائر والمغرب وتابع دراسته العالية في التاريخ في معهد الدراسات العليا وكوليج دو فرانس ومدرسة اللغات الشرقية. وشارك لأول مرة في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في الجزائر عام ١٩٠٦. حيث التقى بغولد زيهير، ومائير لامبير وغيرهما. وترس اللغة العربية، الفصحى واللغة العامية، وأصبح عضواً في المعهد الفرنسي للأثار الشرقية في القاهرة. ثم أخذ ينتقل بين البلاد العربية فزار البصرة والمحيرة وبغداد، حيث قام ببعض المهمات لصالح دولته، والتقى عدداً من الباحثين مثل محمود شكري، ورؤوف الجادري، ومحمد جليبي، وحمد بك مدير الأثار العراقية. وفي عام ١٩٠٨ شارك في أعمال المؤتمر العالمي للمستشرقين في كوبنهاغن، ثم زار القسطنطينية وبدأ دراساته حول الحلاج. وفي مصر عُيِّن عضواً في المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة. واكتسب صداقة حسين صفدي، ورشيد رضا، وعلي بهجت، ثم سافر إلى بريطانيا حيث نشر في بعض المجالات أولى كتاباته عن الحلاج والحلاجية. وفي عام ١٩١٢ شارك في مؤتمر المستشرقين في أثينا، والمؤتمر الرابع للتاريخ والديانات في لندن. وفي عام ١٩١٤ تزوج وقضى مع عروسه شهر الزفاف في صحراء الجزائر وبسكرة وتوغرت. ثم تطوع، أثناء الحرب العالمية الأولى، في الجيش الفرنسي، ليعمل مترجماً برتبة مرشح ضابط وأرسل إلى الدردنيل. وقام بمهام عديدة للجيش ووزارة الخارجية ومنح وسام صليب الحرب. وفي عام ١٩١٦ شارك في أعمال اللجنة الفرنسية في اتفاقية سايكس بيكو في إنجلترا. ثم عاد إلى مصر حيث قام في بورسعيد والقاهرة وجدة بمهام سياسية لصالح الخلفاء، والتقى اللبني وكلايتون

رئيس المكتب العربي والشريف حسين والأمير فيصل ولورانس وعبد الله فيلبي وحاييم وايزمن. وقضى عدة شهور في القدس، وهي تحت الاحتلال البريطاني. ثم شارك في إعداد اتفاقية كليمنصو-فيصل عام ١٩١٨. وعاد بعد انتهاء الحرب إلى أعماله العلمية وبحوثه ومحاضراته في مراكز البحث وفي العواصم والجامعات في البلاد العربية وتركيا وإيران والهند والبلاد الأوربية؛ فكان دائم التنقل والتجوال لا يهدأ ولا يقر في مكان. وقد تنقل بين هذه البلاد مراراً كثيرة وهو يبحث عن المخطوطات والمصادر ويقابل العلماء. وفي الوقت نفسه يقدم خدماته ومشورته للدول المحتلة فيما يخص الإسلام والشعوب الإسلامية والعرب. وفي عام ١٩٢٤ انتخب عضواً في الجمعية الآسيوية الملكية في لندن، وفي أكاديمية العلوم السوفيتية. وفي عام ١٩٢٨ بحث مرة أخرى إلى الشرق لأجل دراسة تطور الأوساط المسلمة في فلسطين والعراق وسورية، وتطور الدراسات العليا فيها والتنظيمات الحرفية والعمالية. وكان دؤوباً في البحث عن مصادر جديدة عن الحلاج. وفي عام ١٩٣٠ زار قبر الحلاج ببغداد وقبر ابن باكوية الشيرازي في طهران ومدينة البيضاء مسقط رأس الحلاج. وشارك في محاولات تبني الأحرف اللاتينية عند العرب والفرس كما هو الأمر في تركيا.

وفي عام ١٩٣٣ عُيِّن عضواً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة. وفي عام ١٩٣٤ شارك مع ماري كحيل في دراسة جماعة "البدلية" في دمياط؛ وهي جماعة دينية كانت تحاول التوفيق بين الإسلام والمسيحية في التقائهما بالإبراهيمية. وزار مرة ثانية

باشتعال حرب فلسطين وخروج الفلسطينيين وإعلان دولة إسرائيل صار له مجال جديد للعمل والمهمات؛ فكترت زيارته لفلسطين ولا سيما القدس والخليل وبيت لحم



بل مراراً عديدة - قبر الحلاج وقبر سلمان الفارسي وكربلاء والنجف والكوفة وبيروت ودمشق واسطنبول. وفي اللاتينية... التقى بالشيخ سليمان الأحمد، واستفاد منه كثيراً من المعلومات في دراسته لطائفة النصيرية. وفي عام ١٩٢٨ زار المنصورة ودار ابن لقمان وعواصم عربية عديدة وتركيا. وشارك في مؤتمر المستشرقين الألمان، حيث ألقى بحثاً عن الشيعة المتطرفين في نهاية القرن الثالث الهجري، كما شارك في المؤتمر العشرين للمستشرقين في بلجيكا. وحينما نشبت الحرب العالمية الثانية عاد فوضع نفسه تحت تصرف الجيش الفرنسي، فرافق الجنرال ويغاند، وحضر معه حفلة زفاف شاه إيران بأخت الملك فاروق. وخدم في الأركان العامة برتبة رئيس كتيبة العاملين في قسم ما وراء البحار، ثم معاوناً لجنيرود وزير الإعلام. وانتخب عضواً في الأكاديمية الإيرانية. وفي فرنسا اعتقله الألمان مدة ثم أطلق سراحه. وعاد إلى بلاد الشرق ليلقي محاضراته. وفي أثناء الحرب التقى هاشم الأتاسي وشكري القوتلي وسعد الله الجابري وفخري البارودي وأحمد الشرباتي. وزار أفغانستان، وعين عضواً في الأكاديمية الأفغانية. ثم سافر إلى الهند وزار جامعاتها ومعاهدها الإسلامية، كما زار قبر المسيح الزئيف هناك. والتقى نهرو ومنع من زيارة

غاندي في السجن، ورفض زيارة محمد علي جناح الزعيم الانفصالي. وبانتهاج الحرب الثانية عاد إلى نشاطه الاستثنائي ومحاضراته ودراساته. وعيّن رئيساً لهيئة امتحانات الأوغريغاسيون في الدراسات العربية وبقي فيها عشر سنوات.. وفي عام ١٩٤٧ هاجمته الصحافة المصرية متهمة إياه بأنه صديق العرب والمسلمين المزيف. وباشتعال حرب فلسطين وخروج الفلسطينيين وإعلان دولة إسرائيل صار له مجال جديد للعمل والمهمات؛ فكترت زيارته لفلسطين ولا سيما القدس والخليل وبيت لحم. وأدى خدمات للدولة الفرنسية وقدم تقارير عن مهماته لوزارة الخارجية. وظهر متعاطفاً مع العرب من الناحية الإنسانية وزار مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. وكما أبدى إعجاباً بغاندي ومؤازرته له، كما أزر نضال الشعب في المغرب لإعادة السلطان إلى العرش. وشارك في باريس في الصلاة على الضحايا المسلمين الذين قتلوا في إحدى التظاهرات، وتآزر مع سارتر وموريك للمطالبة بإنصاف الشعوب المستعمرة والدعوة إلى السلام. وفي إحدى التظاهرات تلقى ضربة على عينه أفقدته بصرها وذلك عام ١٩٥٧. سافر في عام ١٩٥٢ إلى الولايات المتحدة وكندا، وألقى هناك عدداً من المحاضرات. وحضر المؤتمر الثاني عشر للمستشرقين الألمان، وصار رئيساً لجمعية أصدقاء غاندي، ورئيساً لجمعية العفو عن السجناء السياسيين عبر البحار. ثم تقاعد من العمل في الجامعة وكوليج دو فرانس، وسافر إلى الشرق متفرغاً لدراساته الاستثنائية، فزار مدغشقر ونيروبي وأوغندا ثم مصر والجزائر. وفي عام ١٩٥٦ منحه الملك محمد الخامس الوسام العلوي. وفي عام ١٩٥٨ زار الجنرال ديغول رئيس الجمهورية الفرنسية، كما زار المهدي بن بركة في سجنه. ثم أعاد الكرة إلى مصر وبيروت والقدس والخليل ودمشق موالياً بحوثه ومنشوراته ومحاضراته. وتوفي في باريس في ١٣/١٠/٦٢ إثر نوبة قلبية. وقد شارف الثمانين من العمر. ومن خلال ما تقدم تجلّى لنا من ماسينيون وجهان من أنشطته، الوجه السياسي المسخر للدولة، والوجه الاستثنائي في محاولته الكشف والدراسة لكثير من جوانب التراث العربي والإسلامي. وثمة وجه ثالث لماسينيون هو الوجه الديني، الذي لزمه طوال حياته، وبذل لأجله كثيراً من الفعاليات، فهو قبل كل شيء رجل دين كاثوليكي يحاول، بشكل ما، وعن طريق دراساته الموجهة إلى الدين الإسلامي، أن

يقدم خدمة الكنيسة الكاثوليكية، فقد كان مؤازرا مؤسسة شارل فوكو في مونتارتر، وهي مؤسسة تبشيرية، وألقى محاضرة عن فوكو بعد وفاته، وعن موقع مؤسسته من القضية الإسلامية، وذلك في مراكز الدراسات بسان لويس وبحضور عدد من الكرادلة. وكان مؤازرا لجماعة القلبين الأقدسين الكاثوليكية التبشيرية، كما كان دائم المشاركة في المؤتمر العالمي للمؤمنين، وبحريرا في مجلة "الإله الحي"، وعضوا دائما في مؤتمرات تاريخ الأديان، وله محاضرات في الإيمان بالمسيح وعالم اليوم في جمهوريات المتقنين الكاثوليك. وشارك في تأليف هيئة التعاون المسيحي الإسلامي، وترأس هيئة حج الصداقة المسيحية الإسلامية في لندن. ورسم أسقفا في القاهرة، فكان يحرص على حضور القداسات، وإحياء ليالي العبادة، وممارسة الصوم مع غيره مؤازرة لبعض القضايا.

وقد بذل جانبا من جهوده لدراسة ظاهرة "أهل الكهف"، التي وردت عند المسيحيين والمسلمين وتجلياتها الإيقونية ودلالاتها الدينية.

وكان لهذا الوجه الديني من فعالياتته ونشاطاته تأثير في مؤلفاته ومنهجه. فمن خلال اطلاعه الواسع على التراث الإسلامي، ومعرفته العميقة والشاملة للمجتمع العربي والبلاد الإسلامية، وصداقته مع شخصيات دينية وعلمية في الشرق، كان يحاول دوما التقريب بين الإسلام والمسيحية. ويبحث عن نقاط اللقاء والتشابه والتأثير ليصل إلى جو من التعاون والتعارف والتحاب بين أهل الديانتين... ولنا أن نتساءل هل كانت جهوده موجهة بالدرجة العظمى إلى خطاب مسالمين؟ وهل كانت أعماله تنصب في خدمة التسوية الاستعماري وقبول الحضارة الأوروبية المسيحية في عالم الإسلام الشديد الحذر والارتياح؟ وهل أثرت جهوده الدينية هذه على منهجيته العلمية وموضوعيته وحياده؟ في الحقيقة انتقدت الأوساط العلمية الاستشراقية منهجه هذا، كما شكك كثير من الدارسين والمثقفين العرب في مصداقيته، ولا سيما حين كانوا ينظرون إلى خدماته الرسمية في الجيش الفرنسي ووزارة الخارجية، ودخوله في مباحث السياسة الغربية في الشرق العربي والإسلامي، وإن كان يحاول دوما إظهار الصداقة للعرب والمسلمين..

ومن نتائج محاولاته هذه توصول إلى إلقاء الضوء على الديانة الإبراهيمية، فمحمد (ص) ينتمي إلى إسماعيل وإبراهيم، ويقر بإسلام إبراهيم وحنيفيته، ويعلم بصراحة أننا لإسلام ملة الأب إبراهيم، ويعطي مجالا كبيرا للإبراهيمية في عقائده وشعاره. ومن جهة ثانية راح ماسينيون يبحث في النصوص الإسلامية، والعقائد والطقوس والأدعية والخرافات، عن قاسم مشترك بين المسيحية والإسلام. ووجد ذلك في التصوف الإسلامي والحلاج والفرق الشيعية المتطرفة. وكما حاول المقاربة بين مريم وفاطمة (في منظور بعض الفرق)، كما بحث عن تأثير الأفلاطونية الحديثة والتوراة والإنجيل في الفلسفة والتصوف الإسلاميين. وركز جهوده على قصة أهل الكهف، لإثبات مفهوم البعث من الموت والعودة إلى الحياة، أي مفهوم القيامة المسيحي. وألقى الضوء على سلمان الفارسي، والذي كان مسيحيا قبل إسلامه، وكان في خدمة بعض الكهنة المسيحيين. وأصبح له دور هام بعد إسلامه حتى لقد شهد الرسول له بأنه من آل البيت، ثم تمتع بتقديس خاص عند الشيعة.

أما جماعة (البديلية) التي أسسها في دمياط، ثم أصبح لها بعض الفروع، فقد تركت جهودها على استيعاب مسيحيين ومسلمين في إطار التوفيق الإبراهيمي. وكانت لها اجتماعات وأنشطة ثقافية ودينية تجمع بين ما هو مسيحي وما هو إسلامي. وفي كل اجتماع كانت تتلى بعض سور القرآن

الكريم ولا سيما سورة مريم وآل عمران والكهف والفاطحة. وقد ظلت علاقته بهذه الجماعة وثيقة طوال حياته، وكان يوالي مراسلتها حتى لقد بلغت رسائله إليها أربع عشرة رسالة.

ولنلاحظ اختياره دمياط مقرا لها وزيارته دار ابن لقمان في المنصورة التي سجن فيها لويس التاسع إثر فشل حملته الصليبية على مصر.

من مؤلفات ماسينيون:

أ- الكتب:

١- مهمة في ما بين النهرين، مجلدان، مركز الدراسات العربية والشرقية في القاهرة.

٢- بحث في الأصول اللغوية لمصطلحات التصوف الإسلامي.

٣- مختارات من نصوص غير منشورة تخص تاريخ التصوف في بلاد الشام. (غوتتر/ ٢٦٦ص)

٤- هجرة إسماعيل.

٥- حولية العالم الإسلامي؛ بالاشتراك مع ف. مونتي P. U. F.

٦- أخبار الحلاج.

٧- الطواسين.

٨- ديوان الحلاج.

٩- عذاب الحلاج، المتصوف الشهيد في الإسلام (Passion). في أربعة مجلدات.

١٠- دروس في تاريخ المصطلحات الفلسفية العربية- القاهرة.

ب- المقالات والمحاضرات:

كتب ماسينيون ونشر عددا كبيرا من المقالات وألقى عددا كبيرا من المحاضرات، ولو جمعت لجاءت في مجلدات.

ونقتصر فيما يلي على ذكر بعض ما يتعلق منها بالدراسات الإسلامية:

١- المغرب والغزو العربي.

٢- الطريق إلى فاس.

٣- المغرب في أوائل القرن السادس عشر حسب رؤية ليون الأفريقي.

٤- قبور الأولياء في بغداد.

٥- المكتبة الإسلامية في بندر بوشير.

٦- غوته والإسلام.

٧- لهجة بغداد العامية.

٨- تاريخ المذاهب الفلسفية العربية.

٩- زمن تأليف رسائل إخوان الصفا.

١٠- النصيرية في سورية، أصولهم وتوزع عشائريهم.

١١- تأملات قرآنية وأصول المصطلح الصوفي

١٢- الصهيونية والإسلام ماسينيون والإسلام:

لما عرف ماسينيون الإسلام تأثر به أشد التأثر، فقد اقتنع برسائله كما اقتنع برسالة المسيحية، واعتقد صحته دون أن يصح مسلما. آمن بأن الإسلام دين سماوي، وأن محمدا نبي والقرآن كتاب الهي أوحاه الله إليه بواسطة جبريل. وأنه دين الفطرة والبساطة ودين التأمل في الطبيعة والخلق



أبرز ما يسمى في الصوفية الإسلامية بالأبدال، كما أبرز دور علي وفاطمة وسلمان الفارسي في الإسلام والشيوعية ومن العلوم أن سلمان يمثل الثقافة المسيحية

وتوحيد الإله، وأنه كاف لكل حاجات الإنسان. وأنه ليس ديناً جديدا بل مكمل لما سبقه من الأديان التوحيدية، فهو دين إبراهيم حنيفا مسلما ودين كل الأنبياء. وكلمة الإسلام -بمعنى الانقياد والطاعة- تنطبق على كالأديان السماوية، وكلمة مسلم تنطبق على كل الأنبياء. وإبراهيم أبو الأنبياء وإمامهم والله إله الجميع، وإبراهيم مسيحي له تجربته الصوفية التي وجد فيها ذاته وتعالف من خلالها مع البشرية المعذبة، كما فعل الحلاج الذي وصل إلى الحقيقة بطريقة المجاهدة النفسية والفناء. وهكذا يقرر ماسينيون أن التصوف مجاهدة ومعاناة واستبطان قبل كل شيء. وهو يوافق المستشرق مرغوليوث MARGOLIOUTH بأن في القرآن أسسا صالحة لمنهج صوفي أصيل، بعيد عن التأثيرات الأجنبية.

وهذا لا يمنع وصول أصداء خارجية تركت بعض تأثيراتها في التصوف الإسلامي جاءت من صوب الشرق الهندي والافلاطونية الحديثة. بل إن ماسينيون يرى أن هذه الأصداء أبعدت التصوف الإسلامي عن متناول الجماهير المسلمة ولا سيما حين نادى ابن عربي بوحدة الوجود.

أما تجربة ماسينيون الصوفية فكانت جمعا بين روحانية القديسين المسيحيين والأولياء المسلمين في منهج التضحية وتحمل الآلام (والحلاج مثال لذلك) وما عرف عند المسلمين بالأبدال الذين هم أعمدة الكون يجحون عن البشر سطوة غضب الإله... إن هذا اللقاء بين البشري والإلهي، الذي هو لقاء بين

وقداسة وطهارة مريم العذراء، وعودة المسيح يوم الدينونة ولقاؤه مع المهدي. والقرآن واحد موحد، يبرئ مريم وابنها من الإثم ومن الشيطان الرجيم. ومحمد نبي صادق أمين وهو المبشر به، وهو خاتم الأنبياء، وليس بعده إلا الأولياء والمقربون. ولم يقل محمد عن نفسه شيئا سوى أنه عبد مرسل يوحي إليه، اقترب من الحضرة الإلهية وبقي عند الأعتاب، فلم يدع الاتحاد والحلول، بينما تجاوزها الحلاج فتجاوز بذلك الحدود المشروعة فقتل بسيف الشريعة وصلب...

ويرى ماسينيون أن محمدا هاجر في سبيل الله، كما هاجر من قبل إبراهيم وزوجه هاجر وابنه إسماعيل. حمل ماسينيون على عاتقه قضية التقريب بين الإسلام والمسيحية، وهو الوحيد في ذلك بين المستشرقين المسيحيين. وجمع بين مسيحيتهم المعقدة كرجل دين وبين تقديره للإسلام، ووجد في دراسة التصوف الإسلامي خير طريق لاكتشاف التقارب والتشابه بين الدينين. كما وجد أن إبراز شخصية الحلاج الصوفي المسلم الشهيد خير ما يؤصل المسيحية في الإسلام.

وكل المستشرقين درسوا التصوف الإسلامي من الخارج، أما ماسينيون فقد درسه من الداخل أمين خلال تجربته المسيحية- الإسلامية وقناعاته الخاصة وتعاطفه مع الحلاج القائل بوحدة الشهود، وأول من قال في الإسلام: "أنا الحق". وهذا ما سماه به إلى أعلى مستويات القداسة والولاية ثم ختم حياته بالشهادة.

إن ماسينيون رأى في الحلاج شبيها له، كرجل مسيحي له تجربته الصوفية التي وجد فيها ذاته وتعالف من خلالها مع البشرية المعذبة، كما فعل الحلاج الذي وصل إلى الحقيقة بطريقة المجاهدة النفسية والفناء. وهكذا يقرر ماسينيون أن التصوف مجاهدة ومعاناة واستبطان قبل كل شيء. وهو يوافق المستشرق مرغوليوث MARGOLIOUTH بأن في القرآن أسسا صالحة لمنهج صوفي أصيل، بعيد عن التأثيرات الأجنبية.

وهذا لا يمنع وصول أصداء خارجية تركت بعض تأثيراتها في التصوف الإسلامي جاءت من صوب الشرق الهندي والافلاطونية الحديثة. بل إن ماسينيون يرى أن هذه الأصداء أبعدت التصوف الإسلامي عن متناول الجماهير المسلمة ولا سيما حين نادى ابن عربي بوحدة الوجود.

أما تجربة ماسينيون الصوفية فكانت جمعا بين روحانية القديسين المسيحيين والأولياء المسلمين في منهج التضحية وتحمل الآلام (والحلاج مثال لذلك) وما عرف عند المسلمين بالأبدال الذين هم أعمدة الكون يجحون عن البشر سطوة غضب الإله... إن هذا اللقاء بين البشري والإلهي، الذي هو لقاء بين

شاهد الآن وشاهد الدوام هو نقطة اللقاء العظمى بين المسيحية والإسلام التي اكتشفها ماسينيون! وقد انتقد ماسينيون بأنه أخذ معطياته من الإسلام السني ومصادره، وأهمل في دراساته المصادر الشيعية، ولكن هذا غلط وتجن.

فنحن نعلم أنه أتقن اللغة الفارسية وحاضر بها وتواترت، زيارته لإيران ولقاؤه أكابر علمائها الدينين. واعتمد على مؤلفين شيعيين كالبلقي والشيرازي، ودرس النصيرية في سورية وكتب عنها، وبحث في الغنوصية الإسلامية أي العرفان لدى الشيعة.

كما أورد آراء الشيعة في الحلاج وساق على تقديسهم إياه آراء علماء ملامتهم كالطوسي، وملاشدره شيرازي، كما وجد أن فرق البائية والبهاية واليزيدية يقدسونه أيضا. وركز جهوده على السيدة فاطمة، التي كثيرا ما قورنت في الإسلام بالسيدة العذراء، وعلى قصة المبالهة التي جرت مع نصاري نجران في المدينة بحضور السيدة فاطمة وعلي والحسن والحسين.

وأبرز ما يسمى في الصوفية الإسلامية بالأبدال، كما أبرز دور علي وفاطمة وسلمان الفارسي في الإسلام والشيوعية ومن العلوم

أن سلمان يمثل الثقافة المسيحية، لأنه كان قبل إسلامه يلازم الرهبان ويتلقى عنهم، ثم ذهب ليبحث عن الحقيقة والنبي الجديد... وقربه النبي حتى عدّه من آل البيت. ويعرج ماسينيون على قضية خروج المهدي التي يؤمن بها المسلمون جميعا، ويرى فيها مثيلا لعودة المسيح المعترف بها أيضا في الإسلام، ويلتقي المسيح بالمهدي، ويعمّ العدل والسلام لجميع البشر... وعند الشيعة أن الخضر وأهل الكهف السبعة سيعدون على مقدمة جيش المهدي فيدخلون القدس ويلتقون السيد المسيح... ويستعين ماسينيون في إثباته إمكان البعث والقيامة، بأمثلة موسى والخضر وإيليا والمهدي والمسيح وأهل الكهف، وهذه كلها معطيات إسلامية سنية وشيوعية ومعطيات مسيحية. ولكن هذا كله لا يخرج بقناعات ماسينيون عن الخط السني.

فهو يؤمن بأن الإسلام شريعة وروح، لا يلي أحدهما الآخر وهو طريقة وحقيقة، لا غنى لإحدهما عن الأخرى. ويرى أن القرآن والحديث هما مصدرا التصوف الإسلامي، وأأنالتصوف سني عربي، سامي، أي إنه أصيل وليس بحاجة إلى التأثيرات الأجنبية. إن ماسينيون مع أمة الإسلام الواحدة، ومع الإجماع والسنة، وإنما كان ميله إلى الدراسات الشيعية بمقدار ما تخدم لديه أطروحة التقارب العقائدي بين الإسلام والمسيحية.

ماسينيون ودراساته في الميزان: لقد كانت ماسينيون مهمتان: الأولى تنمية المفاهيم المسيحية بين المسلمين، والثانية تغيير نظرة المسيحيين إلى الإسلام، وبهذا يتم التقارب بين الجانبين. ولذلك كان كثيرا ما يشارك في احتفالات المسلمين كليلة القدر، وقد يشارك في صوم رمضان ويجعل تلاوة سورة من القرآن ركنا معتادا في اجتماعات "البديلة" التي تضم مسلمين ومسيحيين. ولنتنقل الآن إلى بيان موقف الآخرين من أعمال ماسينيون:

لقد كان طلابه يدهشون لسعة اطلاعه وكثرة مصادره وغزارة ما يورده من الأسماء، فكانوا بين مبهور معجب وبين متشكك حذر. أما العلماء فقد أخذوا عليه مأخذ عديدة منها: ١- جمعه بين السياسة والدين والدراسة العلمية. ٢- وتسخير العلم والبحث لغايات غير علمية. ٣- سطحية نظريته، وبعده عن التحليل، ووقوعه في أخطاء عديدة بسبب التسرع.

مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد ٨٢-٨٤



لويس ماسينيون

رسائل غير منشورة

علي بدر

ماسينيون في بغداد
من الأمتداد المشرق إلى الهداية الكولونيالية



تكشف هذه الصفحات النقب عن كنز استشراقي عظيم الشأن هو رسائل ووثائق كتبها المستشرق الفرنسي الكبير لويس ماسينيون باللغة الفرنسية وأرسلها إلى الأباستاس ماري الكرمللي على مدى الثلث الأول من القرن العشرين. هذا الكنز الاستشراقي اُكتر وضع فهارسها وحالاتها المرجعية الباحث والمترجم العراقي علي بدر. أكثر من مئتين وثمانين نصاً تلقي الضوء على معلومات وجوانب مذهلة وغير معروفة من شخصية هذا العلامة الاستشراقي الذي اضطلع بأدوار حاسمة في فهم أغوار العلاقة بين الغرب والشرق والإسلام والمسيحية، وفي الفوص على عوالم التصوف والروحانية والفلسفة والوجد، وفي درس الحلاج وشؤون أخرى.

علي بدر

إلا أن ما تكشف عن هذه الوثائق في شكل خاص، أن ماسينيون كان مثلاً بقوة على مقربة من الأحداث التي صنعت اتفاق سايكس-بيكو، وخصوصاً عمله إلى جانب هذا الأخير ومشاركته في سياسة بلده، ومحاوله إقناع المثقفين العرب، ربما، بالفكرة الكولونيالية. الكتاب في جزئين، الأول يغطي الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٩، والثاني حتى العام ١٩٣٦. وفي ما يأتي نزر قليل من هذه الرسائل وفهارسها مع شذرات من تقديم علي بدر. في العام ١٩٠٧، كلف الجنرال دوبيلي، لويس ماسينيون القيام بمهمة تنقيبية عن آثار جنوب بغداد، وقد وصل ماسينيون إلى بغداد منفصلاً في بعثة آثارية تبحث عن قصر الأخيضر جنوب كربلاء، وكان عمره خمسة وعشرين عاماً، فعاش حياة متقشفة، متخفياً بملابس ضابط تركي، يحميه العالمان محمود شكري الألوسي والقاضي علينعمان الألوسي. وبعدما ذهب ماسينيون في

غارة الصحراء إلى الجنوب من بغداد للبحث عن قصر اللخمين قصر الأخيضر، رفض أحد الفرنسيين دفع كفالة مستحقة عليه بتحريض من مجموعة من الموظفين الرسميين، فاشتبه أحد الضباط الأتراك بماسينيون، وألقى القبض عليه بتهمة التجسس والاشترك في المؤامرة الماسونية على السلطان عبد الحميد، وعُدب وحُكم عليه بالموت، واقتيد عبر سفينة في دجلة إلى بغداد ماراً من طاق كسرى حيث يرقد هناك الصحابي سلمان الفارسي الشاهد المسيحي على ولادة الإسلام، وفي السجن وعبر القمر الصغيرة التي تفصله وأثناء تراقص موجات الماء المرتعشة فوق السقف، رأى ماسينيون حمامة محنية تهدل فوق شجرة نخيل، ومن ثم أخذت تهدل بصوتها العذب قرب نافذته، وبعد صمت قليل أدرك حقيقة العفو وهي تخرج عبر التعيذة التي حطتها، وتخرج عبر الاسم الذي تلفظه وهو الحلاج، لقد أدرك ماسينيون وهو يمر من الطاق، وعبر مرآته الداخلية، الغريب الذي زاره، مثلما زار قبل سبع سنوات هويسمان، الروائي الفرنسي الذي شهد ماسينيون موته قبل مجيئه إلى بغداد، فاخفى الغريب وراء ملامحه، ووقف الكفن الشفاف بينهما وهو يتقزح أمام عبارته الخلاقة، لقد تعرض ماسينيون إلى تحول روحي كبير،

بينما كان آل الألوسي يبذلون جهداً كبيراً لإنقاذه وكفالاته أمام حازم بك. وبعدما تمكن علي الألوسي ومحمود شكري الألوسي من كفالاته وإطلاق سراحه، عاد إلى منزل الألوسي لمدواته وشفائه ورعايته حتى زالت جميع أعراض التعذيب عنه، فقاما بمرافقته حتى بلغ مكاناً آمناً، ومنحاه خاتماً مكتوباً عليه: عبده محمد ماسينيون، ومن هناك رافقه الأب أنستاس ماري الكرمللي إلى سوريا، لينهب الكرمللي إلى روما وماسينيون إلى باريس. وتبدأ هذه الرسائل منذ وصول ماسينيون إلى باريس ولا تنتهي إلا بموت الكرمللي، وهي موجودة في دار المخطوطات العراقية في بغداد من الرقم ٣٥٠٢٢ إلى الرقم ٣٥٠٦٧. كان قاسم محمد عباس وهو في إطار عمل موسوعي لتحقيق الأعمال الكاملة للحلاج، وفي بحث متواصل عما تبقى من إرث للحلاج من مخطوطات ومقطعات وشذرات في بغداد هو الذي نبهني إلى مجموعة من رسائل المستشرقين الفرنسيين، وماسينيون من بينهم، مرسله إلى الأب أنستاس ماري الكرمللي، فذهبت في ظهيرة يوم قاطظ هنا كي نفاك لغزها، ولم يكن في إمكاني أن أكبت مفاجأتي أمام أكثر من مئتين وثمانين رسالة ووثيقة تخص ماسينيون مكتوبة باللغة الفرنسية

النطاق لتبرير الهيمنة والسيطرة والضم منجهاً، ومنجهاً أخرى قوة للاجتثاث وتفكيك الهوية وتبرير الميكانيكية السياسية، وتدفعاً لأحقاد، ولكن هناك وفي الموازة منه كان الخطاب العلمي والثقافي الذي يقارب بين هذه الثقافات والمجتمعات. ما دفعني إلى ترجمة هذه الرسائل وتحقيقتها وتقديمها إلى القارئ العربي هوشعورياً العميق بأن هناك عالماً من القوى المرتدة التي تريد عزل الثقافات بعضها عن البعض، ينهض في الشرق بقوة، وبأن هناك عالماً من القوى المرتدة يريد بناء السياج الصلب الذي كان يسور المدينة الكولونيالية بشكل رمزي على أساس العرق، واللون، والطبقة، والثقافة، ويعزلها عن السكان المحليين، وهو ينهض اليوم في الغرب بقوة (...).

xxx

وربما تكشف هذه الرسائل بشكل جلي عن طرف لامع ومتميز من ثقافتنا المعاصرة التي نشأت وتأسست أول القرن المنصرم. نشأت في القرن الذي شهد حقيقة لكل أنواع المواجهات الثقافية والسياسية مع الغرب، وتكشف بشكل واضح عن طرف مهم ومتنوع من حياة النخبة المثقفة التي صاغت وأسست



هنالك نقطتان تتعلقان بعملية تحقيق هذه الرسائل يجب إيضاحهما، الأولى تقنية، تتعلق بقراءة هذه الرسائل وإفراغها وترجمتها، فقد كان خط ماسينيون باللغة الفرنسية في غاية التعقيد والتداخل، كما أن الورق العادي لبعض هذه الرسائل قد شق تماماً لقدمه، ونصل الجبر عنه حتى اختفى إلا بعض الآثار التي دلت عليه، وبعض هذه الرسائل اختلطت فيها صورة الوجه مع صورة القفا، وبعضها قد تهرأ تماماً لسوء الخزن، وبعدما تجاوزنا هذه الصعوبات بمشقة بالغة، قمنا بإفراغها أولاً

معارفها في تلك الحقبة والتي ترد مراراً عديدة في رسائل ماسينيون، وهم الزهاوي والرصافي والكرملي ومحمد رشيد رضا وجمال الدين الأفغاني ومصطفى جواد وكاظم الدجيلي وروفاثيل بطي والشبيبي ومحمد كرد علي والقاسمي وتيمور وغيرهم. إن هذه الرسائل ترينا وعلى نحو فعال قائمة الفروق الظلية الكامنة في ثقافة الغرب، وقائمة الفروق الظلية بين المثقفين الغربيين أنفسهم، ولا سيما أولئك الذين عملوا وتربوا ونشطوا في مؤسسة الاستشراق، كما أنها ترسم أمامنا الخطوط الصحيحة للمواجهة الثقافية الممكنة اختلافًا والتقاءً، وربما تمكنا عندما يكون الحوار حقيقياً وأصيلاً وقائماً على المعرفة، من أن نضفي على ثقافتنا معنى عملياً وفعالاً، ونشعرنا بأننا نقف مرة أخرى أمام أوروبا مثلما نقف أوروبا أمامنا، ومثلما نسوح نحن في التواريخ ثقافتها يسوح ماسينيون سياحة هائلة في عدد كبير وضخم من المخطوطات في التراث العربي والإسلامي. إن هذه الرسائل تكشف لنا عن هذا الطابع الذي يعد طابعاً ملغزاً وملتبساً في عمل ماسينيون حين قرّب بين الإسلام والمسيحية في صلب الحلاج، وقرّب بين الإسلام والمسيحية في شخصيتي فاطمة ومريم، وقرّب بين الأديان السماوية الثلاث في شخصية إبراهيم. ففي هذه الرسائل التي لا تشبه الرسائل الشخصية أبداً، تتحدد المواقف بشكل واضح وصريح، وتتجلى على نحو كامل المواقف الثقافية والمعرفية والدينية والسياسية، وتتضح مواقف ماسينيون من التصوف الإسلامي ومن الثقافة العربية برمته، كما أنها تكشف عن انشباك ماسينيون الكامل، واهتمامه بكل ما ينتج من ثقافة في العالم العربي من صحف ومجلات وكتب وأخبار، وترسم لوحة واضحة لماسينيون الشخص - الإنسان وتفصح عن مواقفه من بعض المستشرقين ومن بعض المثقفين العرب، وترينا اللحظات التاريخية الحاسمة من مصير الشرق العربي بعد التحرر والاستقلال من الإمبراطورية العثمانية، حيث تكشف عن عمل ماسينيون السياسي في المنطقة العربية وعمله كداعية للكولونيالية ومنفذ لسياساتها في المنطقة في أخطر مرحلة من مراحل التاريخ العربي، وهي مرحلة الحرب العالمية الأولى، ومن ثم مرحلة الاستقلال وبناء المجتمعات الحديثة. في الواقع إن هذه الوثائق والرسائل

المبعثرة والمتناثرة والمكتوبة باللغة الفرنسية والموجودة في دار المخطوطات في بغداد قد خضعت لرؤيتي وتفكيري ومنهجي في كتاب، وهو كتاب يخصني أكثر مما يخص ماسينيون. لقد انتزعت حق ماسينيون في الكلام، وحقه في الدفاع عن نفسه، وقمت بأسلوبه stylisatoin تفكيره وحياته الخاصة وأفكاره ورسائله الشخصية ومواقفه وترجمتها وأفرغتها في قالب مدون وشكل كتابي، وأخضعت هذه الوثائق لتحليلي ونقدي وتأويلي الخاص بي، وبالتالي فإن هذه الرسائل الشخصية التي أرسلها ماسينيون لصديق له في بغداد، تحولت إلى كتاب يحمل فكراً ربما لا يوافق عليه ماسينيون. ومثلما خضع الحلاج لرؤية ماسينيون ونقده وتأويله الخاص، فقد خضع هو لنقد الآخرين وتأويلهم وأفكارهم، وأصبحت هذه الوثائق كتاباً من المقرر له أن يكون في جزئين، يبدأ الجزء الأول من العام ١٩٠٨ وهو العام الذي غادر فيه ماسينيون بغداد، بعدما أنقذه علي الألوسي من

حكم المموت أصدره العثمانيون مشتبهاً فيه بالجاسوسية، وتؤثر هذه الرسائل إلى إهدائه الديني وتعرفه على الحلاج، وبحثه عن المخطوطات التي تفيد في تأسيس نظريته عن مسيحية الحلاج، وينتهي في العام ١٩١٩ بعدما أصبح ماسينيون مستشاراً لجورج بيكو الطرف الثاني من اتفاق سايكس بيكو، وانخراطه العملي في سياسة بلده، وتؤثر هذه الرسائل إلى محاولات ماسينيون السياسية لهداية المثقفين العرب وإقناعهم بالفكرة الاستعمارية أو الكولونيالية. بينما سيبدأ الجزء الثاني من العام ١٩١٩ وحتى العام ١٩٣٦ (العام الذي تنقطع فيه الرسائل تماماً بعد مرض الأب الكرملي ووفاته) وسيتحرك هذا الجزء على مساحة واسعة ومتجددة في تفكير ماسينيون، اهتمامه الأكبر بالسياسة (انخراطه في التبشير للاندتاد الفرنسي في سوريا ومعركة ميسلون) اهتمامه بمساحة أوسع في التصوف، وأكثر شمولاً من النقطة التي بدأ معها في الحلاج، دراساته

عن ابن عربي والسهورودي القليل، والتستري، والقونوي، وملا صدرة الشيرازي، والطار، وروزبهان البقلي، ودراساته الفلسفية في الفلسفة الغنوصية الإسلامية، وانشباكه في علاقات أكثر تنوعاً مع المثقفين العرب والعراقيين، ولا سيما بعد عمله في الجامعة المصرية، وانشباكه في علاقات مع النخبة السياسية في العراق وفي العالم العربي، ودراساته وأبحاثه عن فاطمة، وسلمان الفارسي، وأهل الكهف، وعلاقة الشيعة بالتصوف، وابن سينا والغزالي والفارابي، والأبحاث البلدانية عن القاهرة ودمياط والقدس والخليل والمدينة المنورة وبغداد والبصرة والكوفة. وهناك نقطتان تتعلقان بعملية تحقيق هذه الرسائل يجب إيضاحهما، الأولى تقنية، تتعلق بقراءة هذه الرسائل وإفراغها وترجمتها، فقد كان خط ماسينيون باللغة الفرنسية في غاية التعقيد والتداخل، كما أن الورق العادي لبعض هذه الرسائل قد شق تماماً لقدمه، ونصل الحبر عنه حتى

اختفى إلا بعض الآثار التي دلت عليه، وبعض هذه الرسائل اختلطت فيها صورة الوجه مع صورة القفا، وبعضها قد تهرأ تماماً لسوء الخزن، وبعدما تجاوزنا هذه الصعوبات بمشقة بالغة، قمنا بإفراغها أولاً، ومن ثم ترجمناها، واستبعدنا بعضها لقلّة أهميته (وهي رسائل قليلة جداً)، وحاولنا أن تقترب قدر الإمكان من إضاءة النقاط الغامضة فيها، لا بتخريج الأعلام والمصادر فحسب، إنما حاولنا أن نعود إلى كل مؤلفات ماسينيون ودراساته المتعددة والإفادة في التعليق على ما ورد فيها، كما إننا لجأنا إلى رسائل الكرملي مع أشخاص آخرين عليها تضيء ما غمض وما التبس، وتتبعنا سيرة الكرملي وماسينيون معا في النشر والإصدارات، وعدنا إلى المجالات والصحف والدوريات العراقية والعربية والأجنبية للوصول إلى ما فيها من نقاط جوهرية

× مقدمة كتاب ماسينيون في بغداد تأليف علي بدر



لويس ماسينيون

رجل المعرفة

الحديث عن لويس ماسينيون حديث مشوق عن فرنسي عشق الشرق ورأى في التصوف الإسلامي الذي تمثل له في «الحلاج» مناجاة إلهية موجودة في كل الملل والنحل والأديان... فمن هو ماسينيون هذا العاشق الصوفي والمستشرق الفرنسي؟ ولد لويس ماسينيون في فرنسا عام ١٨٨٣ وامتدت حياته حتى العام ١٩٦٢، وفي مقدمة الكتاب الذي نشر عن حياته في السنوات الماضية والذي قامت عليه نخبة من المفكرين بإشراف الباحث الفرنسي جاك بيرك نقراً أن ماسينيون كان يرى المقدس في صميم كل إنسان وكل حياة وكان يعتقد أن علاقة البشرية بالأعالي هي علاقة أساسية، وبالتالي فلا يمكنه أن يتصور وجود مجتمع إلهادي أو مادي بحت، ولهذا السبب فإن تطور المجتمعات الغربية أو قطاعات واسعة منها نحو التصور التكنولوجي والصناعي والوطني للكون كان يقلقه.

جداً عن الإسلام والمسلمين. ويعقد الأب باولو دالوليو مقارنات بين ماسينيون المسيحي وماسينيون المسلم إن جاز التعبير من خلال فهم مترابط ومتوازن للمفاهيم الإسلامية الروحية الأساسية، وبين حياة ماسينيون المسيحية من خلال دراسته وتأمله في التصوف وفي شكل خاص من خلال هذا الترابط الروحي المدهش بين نفسه ونفس الحلاج. وبذلك أصبح ماسينيون رويدا رويدا يعيش مسيحيته انطلاقاً من المفاهيم الإسلامية والتعبير العربية. فمن الواضح مثلاً أن الجهاد الأكبر (جهاد النفس) هو مفهوم مواز للسعي في سبيل القداسة والتلمذة على السيد المسيح.

د. عماد عبد الله ×

«جذبني الشرق إليه بماضيه الحافل بالديانات، فإذا أنا غارق فيه إلى قمة رأسي، وإذا فلاسفة الإسلام ومتصوفوه يحظون جميعاً بالقسط الأكبر من تفكيري، وإذا أنا بعد دراستي إياهم أنجذب نحو المنبع الأول الذي استقى منه هؤلاء الفلاسفة تصوفهم وفلسفتهم».

(لويس ماسينيون)

وفي قناعته بأن المقدس جزء أصيل من حياة كل إنسان، مثل ماسينيون جسراً حقيقياً من الفهم الواعي للإسلام والمسلمين، فانفتح بحب على العمق الروحي لهما وإن سبب له ذلك الكثير من المشاكل مع أبناء جلدته الذين ورنوا صورة سلبية

كما أن دراسته عن مفهوم «الفتوة في الإسلام» توازي مفهوم «النذر» عند الصليبيين في سبيل استرداد القدس، والمطوعة أي سكان الرباط هم كالفرسان الصليبيين سواء بسواء، والمتصوف المسلم المتلزم بالجهاد الأكبر يرادف الراهب الذي يعيش النذور الإنجيلية، كما أن

أصبح انشغال ماسينيون بالحلاج وقدره مضموراً بحياته الدينية الخاصة التي تثورت في شكل غريب إلى حد بعيد من خلال التجربة المكثفة التي مر بها بالقرب من بغداد عام ١٩٠٨



من بغداد عام ١٩٠٨ عندما كان في الخامسة والعشرين من العمر حيث ذهب إلى بلاد ما بين النهرين ضمن بعثة أثرية، وأثناء هذه المهمة أقلت السلطات العثمانية القبض عليه للاشتباه به جاسوساً وأرسلته مخفوراً إلى بغداد بالقرب من موقع «لسلمان بيك»، حيث تنتصب بقايا قصر ساساني دمره الفاتحون المسلمون في الماضي. أحس ماسينيون تحت وطأة الخطر المهلك أنه في حضور وحي ما، لقد هزه الأمر حتى العمق وتحول من كاثوليكي ينقصه الإيمان إلى ورع كبير مؤمن متحمس، وصار هذا الشكل المكثف من الكاثوليكية وصوفية الحلاج غير قابل للتمييز في ما بعد. لم يكن الحلاج مجرد شخصية تاريخية فقط بالنسبة إلى ماسينيون، بل الشكل البدائي لأعمق تجربة يمكن أن يتوق إليها البشر، حتى أن الإسلام نفسه في شكل غير مرجح بما فيه الكفاية اندمج في ذهن ماسينيون مع الكاثوليكية الزاهدة التي خبرها بتشيدها على المعاناة وعلى

هناك توازياً بين الحج الإسلامي إلى مكة المكرمة وبين الحج المسيحي إلى القدس، وبين مفهوم الإحرام هنا وهناك، فالمرجع والأصل هو إبراهيم الخليل بعلاقته بإسماعيل من جهة وإسحق والقدس من جهة أخرى، وإبراهيم هو أيضاً النموذج الأولي للمهاجر، وكل من يخرج من ذاته في سبيل اللقاء مع الله يعتبر مهاجراً. ومن خلال مفهوم الشهادة والاستشهاد. ناصر ماسينيون «دين المحنة» في شخصية الحلاج الذي صنع مكانته العلمية من خلال رسالته لدرجة الدكتوراه التي أعدها عنه بصفته المتوصف الإسلامي الذي أعمدته السلطات المسلمة في بغداد عام ١٩٢٢م، وقد كان عملاً مهماً بالفعل إذ ظهرت معرفة ماسينيون بالإسلام وأدابه والعالم الإسلامي في القرون الوسطى، عميقة وواسعة.

أصبح انشغال ماسينيون بالحلاج وقدره مضموراً بحياته الدينية الخاصة التي تثورت في شكل غريب إلى حد بعيد من خلال التجربة المكثفة التي مر بها بالقرب



إن عفة القلب شرط اللقاء بالله إذا كانت أسرارنا بكراً، وإننا نجد ماسينيون يتأمل في ذهاب الحلاج لخدمة رسالة الإسلام، إلى ما وراء حدود دار الإسلام وقلاع المرابطين، حيث عاش جهاده مرتين بالذهاب إلى الهند وأيضاً مرتين في جهاده بالحج. فالاستشهاد جهاد في سبيل الله يرادف تماماً أضحية الحج حيث إن الصلاة وقت الحرب ركعتان وصلاة وقفة عرفات ركعتان، كما أن صلاة العاشق «ركعتان لا يصح وضوءهما إلا بالدم» على حد ما قال الحلاج وهو مصلوب، ويعرفات تتحقق المساواة بين الرجل والمرأة، كما أن الجهاد الأكبر واحد لثنتين.

ويضيف ماسينيون أنه وجد في غاندي أجوبة لتساؤلاته حول دور النخبة الروحية في المجتمع وحول إمكانية خرق دائرة انغلاقهم، إذ رأى في موقفه الموقف القادر على رفع الجماهير إلى مستوى النضج الروحي الواعي، فلم يستخدم الجماهير في سبيل قضية ما، بل خدمها في دعوتها العظيمة في سبيل

التي تتجاوزنا جميعاً. وقد وجد شبه كبير بين فكر ماسينيون وأطروحات المصلح الكبير أمهاتما غاندي. يقول ماسينيون إن من يعتبر غاندي مخترعاً منهج الكفاح الاجتماعي والإنساني هو مخطئ، فهذا ليس منهجاً بل هو موقف روحي صوفي، قبل أن يأتي إلى ساحة السياسة.

ماسينيون على وجود النعمة الإلهية في الإسلام، وبالنسبة إليه، فإن الله كان يعني المحبة، أي العلاقة والهدية والتواصل مع الآخرين والتعاطف مع الأهموم ومصائبهم. ففي ما وراء العقائد والأيديولوجيات المختلفة تبقى هناك علاقة أساسية تجمع بين كل البشر، هي علاقة التواصل والتعاطف من خلال الحقيقة المطلقة

الانعتاق عبر المعاناة. ويمكن القول إن شخصية الحلاج، لا بل نظرة ماسينيون إلى شخصية الحلاج هي التي تعطينا مفاتيح فهم تطور ماسينيون الروحي، ولا بد من ذكر عبارة الحلاج «أنا الحق» لفهم الرابط في تأمل ماسينيون بين التصوف الإسلامي وبين تربيته أراء غاندي في ما يخص الجهاد في سبيل الحق satyagraha واللاعنف ahimsa، والحلاج هو الصوفي الذي أراد أن يعطي حياته الروحية وشهادته أبعاداً اجتماعية تخص الجماهير والدولة ولا تخص فقط نخبة من المختارين.



كما لاحظ ماسينيون أن هناك ترادفاً بين عفة الراهب في المسيحية وبين الامتناع عن العلاقة الجنسية أثناء الحج في الإسلام، فممارسة الخلوة في الإسلام تتطلب العفة وهذا ما نلاحظه عند الحلاج حيث عاش العفة التامة فترات طويلة من حياته.

وعلى كل حال، فإن عفة القلب شرط اللقاء بالله إذا كانت أسرارنا بكراً، وإننا نجد ماسينيون يتأمل في ذهاب الحلاج لخدمة رسالة الإسلام، إلى ما وراء حدود دار الإسلام وقلاع المرابطين، حيث عاش جهاده مرتين بالذهاب إلى الهند وأيضاً مرتين في جهاده بالحج. فالاستشهاد جهاد في سبيل الله يرادف تماماً أضحية الحج حيث إن الصلاة وقت الحرب ركعتان وصلاة وقفة عرفات ركعتان، كما أن صلاة العاشق «ركعتان لا يصح وضوءهما إلا بالدم» على حد ما قال الحلاج وهو مصلوب، ويعرفات تتحقق المساواة بين الرجل والمرأة، كما أن الجهاد الأكبر واحد لثنتين.

والحج أيضاً هو جهاد النساء اللواتي يمارسن الجهاد أيضاً في خدمة الفقراء وحماية اليتامى والضيوف والغرباء، فمن الواضح تماماً أن الحلاج بتقدمه نفسه يريد أن يؤدي الحج والجهاد معاً، فهما أثناء الجدل يصرخ بعد ٤٠٠ جلدة فتحت القسطنطينية ثم يتوضأ بدم ذراعيه قبل الصلب، فعرق الأبطال هو الدم والشهيد لا يحتاج إلى الغسل بعد موته، إذ هو طاهر قد تطهر بدمه، والحلاج شهيد في الجهاد. وفي كتابه عن الحلاج برهن

الحق. ومن هذا المنطلق، فإن ماسينيون على خطى غاندي كان يقترح على العالم نظاماً اجتماعياً ودولياً جديداً. ولكن أي نظام؟ إنه ليس ذلك النظام الذي تريد قوى المال والرأسمالية أن تفرضه علينا اليوم بالقوة ولا ذلك النظام الذي تحاول قوى التزمت والتطرف أن تفرضه علينا بالقوة أيضاً، وإنما هو ذلك النظام الذي يعترف بتعددية الثقافات والحضارات وبإمكان التعايش في ما بينها من خلال التواصل الروحي والإنساني العميق.

والمؤكد أن قراءة الصلاة الأخيرة للحلاج كما أوردها ماسينيون تقودنا إلى معرفة عمق أعماق الرجل والذي عمل بصبر لتحقيق أمنيته في الانتماء إلى سلسلة البدائل منشوقاً إلى الاستشهاد في الصحراء مثل شارل دي فوكو معيداً للمسلمين ما سبق أن قدموه له حين سبق وأخلي سبيله، ورعته عائلة مسلمة في بغداد ليصبح من الرجال الذين تستمر شفاعتهم عبر الأجيال ويشكلون تلك السلسلة من النفوس البطولية أو كما يدعوه اصداق الله وهم ذاتهم «شركة القديسين» كما في المسيحية وأن هذه السلسلة هي العمود الفقري للتاريخ البشري. وهكذا يتضح أن الحلاج بصفته أحد البدائل قد قبل ظلم مجتمعه وطلب الاستشهاد وصلب مرفوضاً ومنبوذاً ومهمشاً... لكن عبر العصور رويداً رويداً تقبله الوعي الأخلاقي للعالم الإسلامي وما هو يقوم بعمله في حياة الناس بعد قرون طويلة كما في حياة ماسينيون نفسه. ومهما يكن من أمر، فإن ماسينيون رفع راية عالية عنوانها الوجدانية في الله وانجذاب القلوب الخاشعة المؤمنة له من كل الأمم والشعوب والقبائل، ذلك أن تلك الواجهة مصدرها، وهي تراتح فيه، هي دعوة إلى التوفيق لا إلى التفريق كان ماسينيون راعيها ومجسرها ومفجر ثورة فكرية عرفتها فرنسا بصورة خاصة في انفتاحه على العالم الشرقي والإسلامي بنوع خاص.

× استاذ فلسفة اسلامية

لويس ماسينيون

باسم عبد الحميد حمودي

يعتبر لويس ماسينيون من أكبر مستشرقى فرنسا وأشهرهم، وقد شغل عدة مناصب مهمة كمستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال أفريقيا، وكذلك الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر.

تعلم لويس العربية والتركية والفارسية والألمانية والإنكليزية وعني بالآثار القديمة، وشارك في التنقيب عنها في العراق (١٩٠٧ - ١٩٠٨) حيث أدى ذلك إلى اكتشاف قصر الأخيضر. درس في الجامعة المصرية القديمة (١٩١٣) وخدم في الجيش الفرنسي خمس سنوات خلال الحرب العالمية الأولى. استهواه التصوف الإسلامي فدرس الحلاج دراسة مستفيضة ونشر ديوان الحلاج مع ترجمته إلى الفرنسية وكذلك مصطلحات الصوفية وأخبار الحلاج والطواسين، كما كتب عن ابن سبعين الصوفي الأندلسي، وعن سلمان الفارسي.

تولى لويس تحرير مجلة الدراسات الإسلامية وأصدر بالفرنسية حوليات العالم الإسلامي حتى عام ١٩٥٤.

درس ماسينيون حياة الحسين بن منصور الحلاج دراسة مستفيضة وله فضل كبير في إعادة اكتشاف ذلك المتصوف الإسلامي. سأورد هنا الصلاة الأخيرة أو صلاة السجن من كتاب الطواسين الذي حققه ماسينيون وصدر عام ١٩١٣ في باريس باللغتين العربية والفرنسية.

يذكر ماسينيون أنه قد تعرض للتوقيف من قبل السلطات العثمانية في أيار ١٩٠٨ واتهم بالجاسوسية وسجن وهدد بالموت.

عندما حكم عليه بالإعدام من قبل ضابط عثماني عن الصورة العرفانية التي احاطت به وسط محنته حتى أطلق سراحه بسعي من علي الألوسي ومحمود شكري الألوسي فارتحل إلى فرنسا بعد جولة له في قصر الأخيضر وبغداد ومدافنها ليكتب في ذلك ويؤرخ للفلسفات العراقية القديمة ومجمل العقائد التي احتضنتها هذه الأرض عبر التاريخ ويكون كتابه (العهد) عن الحلاج نموذجاً لاستنطاق التاريخ الفكري عبر دراسة مستفيضة للبلدانيات وتأتي رسائل ماسينيون للاب الكرملية لتحمل اجابات قصيرة عن اشكالات معتقدية يفسرها ويحللها عبر تجواله الفكري في معتقدات متعددة منها إيمان طائفة من اليهود بالحلاج باعتباره شخصية من الشخصيات التي اعتمد عليها الشيخ عادل بن مسافر وعلاقة ذلك بتفاصيل حياة تلك الطائفة المعتقدية.

ويذكر أيضاً نوعاً من الرؤيا الروحية حيث يقول: رأيت ناراً داخلية تحاكني وتحرق قلبي وكأنني أمام حضور إلهي لا يمكن التعبير عنه، حضور خلاق يوقف إبانتي بصلوات أشخاص غير مرئيين، زوار لسجني، التمتع أسماؤهم فجأة في مخيلتي، ولأول مرة أصبح قادراً على الصلاة وكانت تلك الصلاة باللغة العربية. حين أفرج عنه بفضل عائلة من العلماء العرب المسلمين في بغداد توسطت له، قرّر أن يلتزم بدراسة الإسلام عميقاً وجدياً. من الأفكار المهمة التي آمن بها ماسينيون كانت فكرة البدلية: وتفهم كشفاة الأنبياء والمخلصين ومثالها الحلاج الذي درسه ماسينيون بعمق وأنجز أطروحة الدكتوراه عنه عام ١٩١٤، وقد أظهر فيها تطور المراحل في حياة المتصوف عبر التوبة ونكران الذات والتطهر، إلى نوع من تجربة الاتحاد في ذات الله. وقد طبق على الحلاج فكرة البدلية وهو يرى أن حياة الحلاج وشفاعة موته من أجل أمته تمتد إلى ما بعد إعدامه. واعتبر أن موت الحلاج نوع من الألم البطولي تحمله من أجل الآخرين، منتظماً بذلك إلى سلسلة البدائل أو الشواهد

ولا يقف ماسينيون عند هذه الفكرة بل يتعداها إلى بحوث أخرى حول وحدة الأديان وتشابه منطلقاتها ووقوف متعصبين ضد آخرين من أديان أخرى فيما تحمل مناقشات ماسينيون مع الكرملية جوانب من صور فيلوجية وعمرانية ما يجعلنا نفكر من جديد بضرورة دراسة الصورة الثقافية للعراق مطلع القرن العشرين كتدبير عقلائي مؤثر على مجمل الصورة الفكرية للشرق العربي حيث وجد على الساحة الكثير من المفكرين العراقيين نوي الاطروحات الفكرية التنويرية الذين أخذوا لا باللهوس التجديدي لمجرد التجديد بل بدراسة الظاهرة الفكرية والعمرانية والمادة التاريخية المتوافق عليها لا كمسلمات بل كمواد تستثير الباحث وتجعله متشككاً بداية قبل ان يصل إلى اليقين المعرفي.

ان هذه الرسائل تعد ذخيرة مضافة للباحث في مختلف

الصعد الفكرية والعمرانية واللغوية والمعتقدية وهي جديرة بالقراءة والفحص وتمعن النظر من جديد في مجمل الظواهر التي سادت مطلع القرن العشرين وصولاً إلى يومنا هذا



ختم ماسينيون بعد معالجة فنية من قبل الخطاط العراقي الراحل ضياء الطائي

الإشراف اللغوي

التصميم

التحرير

خليل الاسدي

مصطفى محمد

علي حسين

طُبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

مسارات